دكتور عبد الغنى عبود

الإنسان فى الإسلام

والإنسان المعاصر

الإسلام وتحديات العصر

الكتاب الرابع

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

الاسـلام وتحـديات العصر

الكتاب الرابع

الإنسان في الإسلام
والإنسان المعاصر

تاليف

دكتور عبد الغني عبود

أستاذ التربية المقارنة والادارة التعليمية المساعد
كليـة التربية جامعة عين شمس

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

الطبعة الأولى

فبراير ١٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

— « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »

(قرآن كريم : الإسراء — ١٧ : ٧٠) .

* * *

— « والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها . والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها »

(قرآن كريم : الشمس ـ ٩١ : ١ ـ ١٠) .

* * *

— « قتل الإنسان ، ما أكفره . من أى شىء خلقه ؟ من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره »

(قرآن كريم : عبس ـ ٨٠ : ١٧ ـ ٢٢) .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السلسلة

ليست هذه السلسلة سلسلة دينية بالمعنى التقليدى ، كما يبدو للوهلة الأولى من عنوانها ، وإن كان الدين الإسلامى يعتبر محورها الأساسى .

ولقد كان الدافع إلى إصدار هذه السلسلة ، بعيدا كل البعد عن الدين ، قريبا كل القرب من العلم الخالص فى مجال التربية ، الذى تخصصت فيه ، وحوله تدور قراءاتى ودراساتى ، وما أقوم به من أبحاث .

وصحيح أن الدين ، ليس حكراً على متخصصين فيه ، كما هو الحال فى الكيمياء والطبيعة والصيدلة والهندسة والأدب واللغة والتربية ، ولكن المتخصصين فيه — بالضرورة — أقدر على العطاء ، وغير المتخصصين فيه لا بد أن يكون عطاؤهم أقل ، وجهدهم أكبر .

ويعود الدافع إلى إصدار هذه السلسلة إلى سنوات خلت ، حيث كان يضمنا (سمنار) الدراسات العليا بكلية التربية جامعة عين شمس ، وأراد أحد الدارسين تسجيل رسالة عن (التربية الإسلامية) ، يحصل بها على درجة الماجستير فى التربية ، وهالنى رد أحد الزملاء — الأساتذة — عليه ، بأنه لا يوجد — للأسف — تربية إسلامية .

ولم يكن بين يدى الرد ليلتها على الزميل ، ولا قدرة — بالتالى — على مناصرة الطالب ، ومن ثم أمسكت عن الرد ، حتى يكون بين يدى الدليل .

ورجعت إلى ما كتب عن (التربية الإسلامية) ، فى الكتب والمجلات العلمية ، فلم أجد فيما كتب متصلا بالتربية الإسلامية ، سوى . . العنوان ، رغم أن بعض ما قرأته لمفكرين إسلاميين . . كبار .

وكان على أن أعتمد على الله وعلى نفسى ، فى التصدى لهذه المغالطة العلمية ، التى يقول بها بعض رجال التربية عن جهل ، ويسكت عنها البعض الآخر عن قصور .

وجمعت المادة العلمية فيما يزيد على عام كامل ، وبدأت أنظم هذه المادة ، وكتبت بالفعل — على أساسها — كتابا متكاملا عن (الأيديولوجيا والتربية فى الإسلام) ، ولم يكن ينقصه سوى أن يدفع إلى المطبعة ، ليرى — بعدها — النور ، ويبث بعدها نور الحقيقة فى قلوب الجاهلين بها ، والمتغافلين لها .

ثم عدت إلى نفسى ، وقلت لها : ولكن المسئولية أمام الله أكبر من هذا الجهد الذى بذلته ، فقد كان لابد — فى نظرى — من مزيد من البحث .

وقلت لنفسى أيضاً : ولكن هذا الجهد الذى بذل كبير ، وهو جدير بأن يرى النور .

واستقرت نفسى على أن ألخص هذا الذى كتبته ، فى ستين صفحة ، نشرت تحت نفس العنوان ، فى المجلد الثالث من (الكتاب السنوى ، فى التربية وعلم النفس) ، الذى صدر مع مطلع سنة ١٩٧٦ .

ثم استقرت — بعد ذلك — على نشر هذا المقال ، مع مقالين آخرين ، ظهرا فى مجلات علمية أخرى ، عن (التربية الإسلامية) ، فى كتاب يصدر قريباً تحت عنوان (مقولات فى التربية الإسلامية) [١] ، نظراً لأن كل مقال من المقالات الثلاثة ، قد صدر — حينما صدر — مليئا بالأخطاء المطبعية ، التى أفسدت المعنى الذى كنت أريده فى بعض المواقف إفساداً .

---

(١) صدر الكتاب بالفعل فى منتصف سنة ١٩٧٧ ، مع تغيير طفيف فى العنوان ، ليكون (فى التربية الإسلامية) ، وقد أضيف فيه إلى المقولات السابقة ، مقولات أخرى ، أعيد توزيعها جميعا ، بشكل تبدو فيه الدراسة متكاملة ، مؤدية إلى الغرض .

واستقرت نفسى — قبل ذلك وبعده — على أن أعمق مفهومى عن الإسلام ، وعن (الشخصية القومية الإسلامية) ، فهى المنطلق الحقيقى للحديث — الصادق — عن (التربية الإسلامية) .

ذلك أننا ندرس نظام التربية فى أى مجتمع ، فى ضوء (الشخصية القومية) لذلك المجتمع ، وبدون تلك (الشخصية القومية) ، يكون نظام التربية — فى نظرنا — نحن رجال التربية — معلقا فى الهواء .

وفى ضوء تلك (الشخصية القومية) ، درست — وتدرس — التربية فى البلاد الرأسمالية عموما ، وفى كل بلد منها ، كما تدرس التربية فى البلاد الشيوعية عموما ، وفى كل بلد منها .

وفى ضوئها كذلك ، درست — وتدرس — التربية المسيحية ، والتربية اليهودية .

أما التربية الإسلامية . . فلم تجد حتى الآن — فى حدود علمى — من درسها هذه الدراسة العلمية المنهجية .

ومن ثم كان هناك من يقول ، بأنه لا توجد تربية إسلامية ، لأن الشخصية الإسلامية اليوم ، شخصية ، لا هى إلى الإسلام تنتمى ، ولا هى عن الإسلام تعرف الكثير ، ومن ثم صارت تلك الشخصية شرا على الإسلام ، وخطرا عليه ، أكبر من الشر والخطر ، الذى يستطيعه أعداء الإسلام أنفسهم .

ومن ثم فالشخصية القومية المعاصرة ، لا يمكن أن تكون هى المدخل الصحيح ، لفهم التربية الإسلامية ، وإنما المدخل الصحيح لها ، هو تلك الشخصية القومية الإسلامية ، فى عصور الإسلام الأولى .

ولو عاد المسلمون إلى فهم الإسلام من جديد ، كما يجب أن يفهم ، لعادوا إلى أنفسهم ، وعادت اليهم قوتهم وعزتهم .. وحضارتهم ، خاصة وأن الدراسة التي قمت بها، أكدت لي ،أن الإسلام قادر على مواجهة (تحديات العصر) ، وأن المسلمين — بالإسلام ـ قادرون على مواجهة تلك التحديات، وأنهم ـ بدونه ـ عاجزون.

ومن ثم يكون الهدف من السلسلة .. تربويا خالصا .

ولكنه هدف .. ديني أيضا .

فالمسلمون اليوم ، بفعل عوامل متعددة ، لايعرف الكثيرون منهم عن الإسلام الكثير ، وهم يعرفون عنه مايعرفه غيرهم لهم ، لاما يجب أن يعرفوه بأنفسهم ... من مصادره الصحيحة : الكتاب والسنة .

بينما هم يعرفون عن النظم والفلسفات المعاصرة .. ذات البريق ـ الأخاذ ـ الكثير والكثير .. لأن غيرهم أراد ذلك لهم .. بفعل عوامل متعددة كذلك .

والوظيفة الرئيسية لهذه السلسلة، هي : أن تضع الإسلام ـ بجوانبه المتعددة ـ وجهاً لوجه ، أمام النظم والفلسفات المعاصرة .. لنرى : أيها أقدر على مواجهة تحديات العصر .

وعندما يكتشف المسلم ،أن إسلامه هو القادر على مواجهة تحديات العصر، وأن الفلسفات والنظم المعاصرة ، إن هي إلا ألوان من العلاج مؤقتة.. مفلسة، فإنه ـ لابد ـ سيعود إلى نفسه ، ويصالح دينه ، ويقرأ عنه ، ويقف على ما فيه.. وقوفه على ما في الفلسفات المستوردة ، ذات البريق الأخاذ . . الخادع.

وعند هذا الحد ، تقف رسالة السلسلة .

ومن هنا قلت وأصررت ،على أنها ليست سلسلة دينية بالمعنى التقليدى .

ومن أراد الدين بالمعنى التقليدى ، فكتبه معروفة ، وكتابه معروفون .

ولكن المسلمين الذين أكتب هذه السلسلة لهم ، ليسوا مستعدين منذ البداية ، لأن يضيعوا وقتا فى قراءة تلك الكتب الدينية ، وفى القراءة لهؤلاء الكتاب المعروفين ، لأن الإسلام ـ كما فهموه ـ لا يصح أن يضيعوا فيه وقتا، يضيعون أكثر منه،فى المذاهب ذات البريق ... الخداع .

وبعد اتضاح (معالم الشخصية القومية) الإسلامية ، مقارنة بمعالم (الشخصيات القومية) الأخرى ، التى نراها فى ظل الأيديولوجيات المعاصرة . . . من زوايا عديدة ، وذلك من خلال هذه السلسلة ،سوف أعود من حيث بدأت، فألخص ماوصلت إليه ، وأتخذ منه منطلقاً للحديث عن(التربية الإسلامية) .

والجهد الذى يجب أن يبذل فى إعداد هذه السلسلة كبير ، والجهد الذى يجب أن يبذل ـ بعدها ـ فى الحديث عن(التربية الإسلامية) كبير..ولكن الهدف الذى تحققه السلسلة ، والدراسة الخاصة بالتربية الإسلامية ـ بعدها ـ فى نظرى ـ أكبر وأعظم ، وفى سبيله تهون الصعاب ، وعلى الله قصد السبيل ؟

القاهرة فى : جمادى الأولى ١٣٩٦هـ . دكتور عبد الغنى عبود

— مـايو ١٩٧٦ م .

وهذا الكتاب ... الرابع

ما أحسب أنى بدأت كتاباً من كتب هذه السلسلة ، بمثل السهولة واليسر والثقة بالنفس ، التى دخلت بها ، على هذا الكتاب ... الرابع .

ذلك أن محور هذا الكتاب هو (الإنسان) ، والإنسان هو محور دراستنا ، نحن المشتغلين بالتربية ، فيما نقرأ ، وفيما ندرس لطلابنا ، وفيما نكتب من كتب ومقالات أيضاً .

ومن ثم كان كثير من المادة العلمية التى أريدها للموضوع .. بين يدى فعلا .

وأكثر من ذلك ، أن هذه المادة العلمية كانت مرتبة ومنسقة ، ولا ينقصها إلا الكتابة .

والأكثر من ذلك — أيضاً — أننى تناولت الموضوع بالفعل ، فى أكثر من كتاب كتبته ، وفى أكثر من مقال .. وإن كانت بصور مختلفة ، ولأهداف أخرى .

فلم التخوف إذن ؟

وما أن شرعت أكتب الكتاب بالفعل ، حتى وجدت العقبات ، تعترض سبيلى .

وجدت أننى — لأكتب الكتاب ، بحيث يتمشى مع الجو العام للسلسلة — لابد أن أقرأ من جديد ، وأفكر من جديد ، وأنظم من جديد .

وكتبت أكثر من مرة .. صفحات طويلة ، ثم هدمت — بيدى — ما بنيته ، لأعيد البناء من جديد .

ووجدتنى فى كل مرحلة أكتبها ، بعد أن استقر الأمر على التخطيط، الذى صدر فى ضوئه هذا الكتاب ، مضطراً لأن أرجع إلى المكتبة ، مرتين كل أسبوع تقريباً ، لأعود لها (بكومة) من الكتب ، قد انتهيت من قراءتها ، ولأحضر (كومة) جديدة من الكتب ، لابد أن أقرأها ، لأستخرج منها ، ما أعتزم كتابته .

وكان يزيد من المشكلة — أمامى — أننى أقرأ الكثير ، وأجمع الكثير ، ولا أكتب من هذا الكثير الذى حصلت عليه ، إلا أقل القليل ، وإلا لخرج الكتاب — فى النهاية — أضعاف أضعاف حجمه الحالى ، الذى أحرص على ألا يصدر كتاب من كتب السلسلة فى حجم أكبر منه ، حتى يكون فى متناول الجميع ...

وكان يشجعنى على بذل هذا الجهد الكبير ، فى جمع المادة العلمية وتنظيمها وتبويبها وكتابتها و . . . . ، أن الكتاب الثانى من السلسلة — عن (الله والإنسان المعاصر) — كان قد خرج من المطبعة ، ونشر مع باعة الصحف فى السوق فعلا ، وانتشر فى مختلف أنحاء الجمهورية ، وفى بعض عواصم المحافظات ، اختفى الكتاب ، بعد ساعات قليلة من ظهوره .

أى أن السلسلة — رغم عدم الدعاية لها بإحدى وسائل الإعلان حتى ذلك الوقت — قد بدأت تصل إلى أيدى قرائها ، وتجد لها صدى طيباً ، أحمد الله عليه .

ولم يكن ذلك كله يسعدنى ، بقدر ما كان يلقى على عبئاً ثقيلا ، فقد كان على أن أسعى جاهداً ما استطعت — والله الموفق — لأن تظل للسلسلة مكانتها فى القلوب ، وذلك لا يتم — فى نظرى — بلا مضاعفة للجهد ، وركوب لكل صعب .

وكان هذا الصعب ضرورياً — بالفعل — لما ذكرت — فى هذا الكتاب . . . الرابع .

وموضوع الإنسان موضوع يتصل بالدين ، ويتصل بالعلم ، ويتصل بعلم النفس ، ويتصل بعلم الاجتماع ، ويصل بالتربية ، ويتصل بتخصصات كثيرة .

ومع ذلك ، فقد كان على أن أنحو بالكتاب ، النحو الذى نحوته بكل كتاب سبقه ، من كتب هذه السلسلة ، وهو النحو الذى يظهر قدرة الله فى هذا الإنسان ، ويظهر — فى الوقت ذاته — أن الإنسان — فى الإسلام — غيره تماماً فى الحضارة الحديثة ، وأن الحضارة الحديثة تدعى أنها ارتفعت بالإنسان إلى درجة التأليه ، بينما هبطت به ـ فى الواقع ـ إلى الحضيض ، أما الإسلام ، فقد وضعه — منذ البداية — حيث يجب أن يوضع ، عبداً لله ، ولكن هذه العبودية لله ذاتها ، كانت هى التى حررت هذا الإنسان من كل قيد ، وانتشلته من الحضيض الذى كان يعيش فيه قبل الإسلام ، والذى زاد تورطه فيه ، فى الحضارة الحديثة ، ومن ثم كرم الإسلام الإنسان ، بشكل لم تصل إليه حضارة قديمة ، ولا حضارة حديثة ـ كرمه بالفعل ، ولم يكرمه بالكلمات والشعارات وحدها .

ولم يكن وصولى إلى هذه الحقيقة من خلال (الادعاء) ، الذى لا يقوم على دليل ، فما كان ذلك أسلوبى فى معالجة المشكلات ولن يكون ، وما كان ذلك أسلوبى فيما كتبت من كتب هذه السلسلة ، وإلا ما وجدت لنفسها فى قلوب قارئيها ، ما تجده ، بحمد الله .

وإنما كان أسلوبى هو المناقشة الهادئة ، المعتمدة على حقائق العلم وحقائق الدين معاً .

ورغم ذلك ، فليس هذا الكتاب، كتاباً دينياً خالصاً ، ولا هو كتاب علمى خالص .

ولو كان الكتاب كتاباً دينياً خالصاً،ما تعرض لحقائق العلم الواردة فيه، بل ولما اعتمد عليها فى الكثير من الأحيان . ولو كان كتاباً علمياً خالصاً ، ما تعرض لما يورده القرآن الكريم عن الإنسان ، بل ولتعارض مع القرآن الكريم ذاته ، فى كل شىء يتصل بهذا الإنسان .

إنه — كإخوته من كتب السلسلة — كتاب يجمع بين الدين الإسلامى والعلم ، على نحو من الأنحاء ، يظهر به الدين الإسلامى ، قادراً على مواجهة (تحديات العصر) .

وهو لا يظهر هذه الحقيقة ، بطريقة (لى الذراع) ، وإنما بطريقة يقبلها العقل ، فلقد ثبت فشل سياسة (لى الذراع) ، فى الدين والعلم ، كما ثبت فشلها فى السياسة والاجتماع والاقتصاد على السواء .

والغريب فى أمر هذا الكتاب بالنسبة لى ، هو أننى ما أن وصلت إلى كتابة نصفه الأول ، حتى انقلبت الحقائق التى استقرت فى رأسى سنوات طويلة .. رأساً على عقب،وقد ظهر هذا الانقلاب واضحاً على تخطيطى للسلسلة. لقد كان مقرراً أن يكون الكتاب التالى لهذا الكتاب ، عن (المجتمع الإسلامى) ، انطلاقاً ـ بعده ـ إلى الكتابة عن (التربية الإسلامية) ، التى إليها هدفت منذ البداية ، بكتابة هذه السلسلة ، حيث تكون قد اكتملت لى — بكتاب المجتمع — ملامح الإطار النظرى للإسلام ، الذى لابد أن تقوم عليه التربية الإسلامية .

ولكنى ما أن وصلت إلى منتصف الكتاب ، حتى تبينت أن الإنسان ، ليس ذلك الإطار الجسدى المعقد ، الذى نراه أمامنا - معجزاً فى حد ذاته ، بهذا الإطار الجسدى ، ولكنه شىء أعظم من ذلك بكثير . إنه ممتد عبر حدود الزمان والمكان ، مربوط بالكون الأعظم . وهو — فى حياته الأخرى — أعظم منه فى حياته الدنيا هذه .

ومن ثم لم يكن ممكناً فهم الإنسان على حقيقته ، مالم نتم المسيرة معه .. إلى اليوم الآخر .

ومن ثم كان ضرورياً ، أن يكون الكتاب التالى من السلسلة ، عن (اليوم الآخر) ، لا عن (المجتمع) ، على أن يأخذ كتاب المجتمع دوراً له ، بعد ذلك ، ضمن هذه السلسلة ، سيحدده مسارها بإذن الله .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى نقل ما أحسست به ، عند دراسة موضوع الإنسان ، من خلال هذا الكتاب ، على النحو الذى أردته ، وأن يكون له عن قارئه ، ما كان لإخوته السابقين عليه ، فعلى الله - سبحانه - وحده - توكلت ، وإليه - منذ البداية — قصدت بهذا العمل ، الذى أرجو أن يجعله خالصاً عنده ، ومنه — وحده — أرجو خير الجزاء ؟

القاهرة فى : محرم ١٣٩٨ هـ . دكتور عبد الغنى عبود

— يناير ١٩٧٨ م .

الفصل الأول

الإنسان . . بيولوجياً

تقـــديم :

يقول العلم الحديث بأن الإنسان — بعد مولده — يمر بمراحل وأطوار ، فهو ينتقل من الطفولة المبكرة إلى الطفولة المتأخرة إلى المراهقة إلى الشباب إلى النضج إلى الشيخوخة .. ثم إلى الموت .

والموت ليس النتيجة الطبيعية للشيخوخة ، أو ليس المرحلة التالية لها بالضرورة ، إذ الموت مجرد (قاطع) لهذه الحياة الدنيا ، و (مؤذن) بحياة أخرى بعدها ، تقول بها ديانات السماء ، وبعض الديانات الوضعية ، وقد يأتى هذا (القاطع) للحياة فى الطفولة، وقد يأتى فى المراهقة ، وقد يأتى فى الشباب . . . وقد يأتى فى الشيخوخة .

ولم يكن فى قول العلم الحديث بذلك كله ما ينافى ما يقول به الإسلام ، وكتابه (القرآن الكريم) ، بل إن الإنسان يستطيع أن يجزم بأن القرآن الكريم سبق العلم الحديث إلى كل ما توصل إليه ، وما لم يتوصل إليه ، متصلا بحياة الإنسان الدنيا ، بعد مولده ، ومتصلا بحياته قبل مولده ـ وهذا ما سنراه فى هذا الفصل ، كلا فى مكانه .

وربما كان مفيداً هنا ، أن نبدأ قصة الإنسان ، الذى نراه أمامنا ، يتطور من الطفولة إلى الشيخوخة ، قبل أن نراه طفلا .. هناك فى رحم أمه .. سراً من أسرار الله ، يرعاه وينميه ، قبل أن يخرج إلى هذا العالم ، ليرعاه أبواه ،

لنرى : أى الرعايتين أولى بالحمد والشكران : رعاية الله ، أم رعاية الأبويين ؟
ولنرى قبل الرعاية ذاتها قصة الخلق ، وفيها الإعجاز كل الإعجاز ، والمقدرة الإلهية فى أبهى صورها وأعظمها .

نطفة فى قرار مكين :

ولقد لخص القرآن الكريم قصة الإنسان على الأرض ، منذ الخلق الأول — خلق آدم ، وحتى الموت وما بعده ، فى عبارات وجيزة من سورة (المؤمنون) ، فقال :

— « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون »[(١)] .

وفى مواقف مختلفة من كتاب الله المحكم ، تعرض الله سبحانه لقصة خلق الإنسان الأولى ، ولقصة خلقه الثانية ، وفى كل مرة يتناولها من زاوية ، لتكتمل للإنسان — فى النهاية — الصورة ، فتكون العظة والعبرة ، لمن أراد أن يتعظ أو يعتبر :

— « فلينظر الإنسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب . إنه على رجعه لقادر »[(٢)] .

— « ألم نخلقكم من ماء مهين ؟ فجعلناه فى قرار مكين ؟ إلى قدر معلوم؟ فقدرنا ، فنعم القادرون »[(٣)] .

---

(١) قرآن كريم : المؤمنون — ٢٣ : ١٢ — ١٦ .
(٢) قرآن كريم : الطارق — ٨٦ : ٥ — ٨ .
(٣) قرآن كريم : المرسلات — ٧٧ : ٢٠ — ٢٣ .

وتبدأ حياة الإنسان فى رحم أمه ، عندما يتم التقاء الحيوان المنوى ، بالبويضة .

والحيوان المنوى حيوان غاية فى الدقة والصغر ، يفرز الرجل منه فى كل قذفة، من « ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠٠ إلى ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٠٠ حيوان منوى »[١] .

أما البويضة ، التى تنتقل بين مبيض المرأة ورحمها ، فإنها تصل فى حجمها إلى ٤٠ مثلا لحجم الحيوان المنوى ، وإذ كبرت حوالى ٥٠٠ مرة ، فإنها تصبح قريبة فى الحجم من كرة البنج بنج ، ويكون لدى الأنثى منها عند الميلاد « حوالى ٠٠٠ر٢٠٠ بويضة ، يضمر الكثير منها قبل البلوغ . ويبقى حوالى ٠٠٠ر٣٠ بويضة عند البلوغ ، ينضج منها حوالى ٤٠٠ بويضة ، خلال فترة الخصوبة الجنسية للأنثى ، أى منذ البلوغ حتى سن القعود . وفى العادة تنتج الأنثى بويضة واحدة كل ٢٨ يوماً »[٢] .

وقد أشار القرآن الكريم، إلى بداية الحياة فى الرحم هذه ، فيما سبق من سورة (الطارق) ، حين قرر أن الإنسان قد (خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب)[٣] ، فسبق بذلك العلم الحديث بأربعة عشر قرناً ، حين عرف ذلك العلم ، بما توفر له من أدوات ومعدات وإمكانيات ، أن « ماء الرجل يتكون من سوائل ، تفرزها الخصية والبروستاتة ، والحويصلات المنوية ، وبعض الغدد المخاطية بمجرى البول . كما أن ماء المرأة يفرز من من أعضاء تناسلها » ، وأن « ماء الرجل لا قيمة تناسلية له، بغير الحيوانات

---

(١) دكتور حامد عبد السلام زهران : علم نفس النمو (الطفولة والمراهقة) — الطبعة الثانية — عالم الكتب — ١٩٧٢ ، ص ٧٦ — هامش رقم (١) .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٦ — هامش رقم (٢) .

(٣) قرآن كريم : الطارق — ٨٦ : ٦ ، ٧ .

المنوية ، التى تتكون فى الخصية ، كما أن ماء المرأة لا قيمة تناسلية له ، بغير (البويضة)، التى يحملها ماؤها » . « فالمقصود من ذلك : من بين خصية الرجل ومبيض المرأة ، فعبرت (الآية)عن الخصية بالصلب،الذى فيه النخاع الشوكى، الذى له صلة وثيقة بوظيفة الخصية ، وعبرت عن المبيض بالترائب ، والمقصود بها الثديان ، اللذان لهما صلة وثيقة بوظيفة المبيض » ، الذى « يهيئ الثديين لإفراز اللبن ، وللرضاعة بعد الولادة ، ولذلك يكبر حجم الثديين فى الحمل، على ما هو معلوم وظاهر»[(١)].

وعندما يصل الحيوان المنوى إلى البويضة ، يخترق الغلاف الخارجى لها ، وتلتصق نواته بنواتها، وتتحد الخليتان ،وتكونان خلية واحدة ،تسمى (النطفة) ، على حد تعبير القرآن الكريم ،تتكاثر بالانقسام الذاتى إلى خليتين ، فأربع خلايا ، فثمانى خلايا ، فست عشرة خلية ، وهكذا .

وتنزل البويضة المخصبة، أو النطفة ، من قناة البويضات (قناة فالوب) ، إلى الرحم ، وتتعلق بجدار الرحم ، تغلفها مادة سائلة لحمايتها ، ويربطها الحبل السرى بالأم ، ومن خلاله يحصل الإنسان من الأم ،على ما يحتاج إليه من غذاء وأوكسجين ،وهنا تتحول النطفة إلى علقة ، ثم تتحول إلى مضغة ، وتواصل نموها وتحولها ، حتى تقذف بالطفل بطن أمه .. إلى هذه الحياة .

وهكذا تبدأ حياة الإنسان « بخلية واحدة ، تنشأ من اتحاد حيوان منوى من الأب ، ببويضة من الأم ، وهذه الخلية تنقسم ، وتواصل الانقسام ، حتى يكون الجسم البشرى ، وفى خلال هذا التكاثر ، لا يتضاعف عدد

---

(١) عبد الوهاب حمودة : القرآن وعلم النفس — رقم (٥٥) من المكتبة الثقافية) — دار القلم بالقاهرة — ١٥ فبراير ١٩٦٢ ، ص٤٩—٥٣ .

الخلايا فحسب ، بل إن الخلايا تمايز أيضاً إلى أنواع مختلفة ، لتكوين مختلف أعضاء الجسم »[١] .

وفى الشهر الأول ، يتم تحول النطفة إلى علقة .

وفى هذا الشهر الأول أيضاً ، « تمايز الخلايا ، ويصبح بعضها خلايا عصبية ، وبعضها خلايا عظمية ، وبعضها خلايا عضلية » ، و « يبدأ الجهاز الدورى فى النمو » . « كذلك يبدأ نمو الجهاز العصبى ، ثم الجهاز الهضمى ، ثم الجهاز التنفسى ، ثم الجهاز البولى » ، كما « تظهر بدايات الأطراف وبدايات العينين »[٢] .

ويحمــــل كل من الحيوان المنوى والبويضة ٢٤ من الصبغيات ، أو الـكروموزومات hromosomes) ، التى هى عبارة عن خيوط من المادة الحية ، تحمل المورثات ، أو الجينات Cenes ، التى هى عبارة عن وحدات دقيقة من المـادة الحية ، تحمل جميع الصفات التى تحدد خصائص الفرد . ويتـكون كل صبغى أو كروموزوم ، من هذه الصبغيات الـ ٢٤ ، التى يتـكون منها الحيوان المنوى أو البويضة ، من أكثر من ١٠٠ مورث أو جين .

أى أن البويضة المخصبة ، أو النطفة ، تحتوى « على ٤٨ صبغياً ، أو ٢٤ زوجاً من الصبغيات ، نصفها من الأب ، والنصف الآخر من الأم »[٣] .

---

(١) ويلارد أولسون : تطور نمـو الأطفال ـ ترجمة الدكتور ابراهيم حافظ وآخرين ـ مراجعـة وتقديم الدكتور عبد العزيز القوصى ـ عالم الكتب ـ ١٩٦٢ ، ص ٧٧ .

(٢) دكتـور حامد عبد السـلام زهران : علم نفس النمـو (مرجع سابق) ، ص ٧٩ .

(٣) دكتور فؤاد البهى السيد : الأسس النفسية للنمو ، من الطفولة الى الشيخوخة ـ الطبعة الرابعة ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٥ ، ص ٣٧ .

ومعنى ذلك، أن الحيوان المنوى، الذى لا يمكن أن يرى بالعين المجردة لصغره، ودقته، يحمل ٢٤ من الكروموزومات، وأن كلا من هذه الكروموزومات، الأدق من الحيوان المنوى، يتكون من أكثر من ١٠٠ جين.

وهى دقة ما بعدها دقة، تدل على قدرة للخالق سبحانه، ما بعدها قدرة.

ويوضع سر الحياة الإنسانية، فى هذه المخلوقات الأولية، البالغة الدقة.

وتحدد هذه المخلوقات الأولية، البالغة الدقة، جنس الإنسان (ذكراً كان أو أنثى)، ولون عينيه وشعره، وأنفه وفمه ولونه، وكل ما يتصل به، قبل أن يقذف به الرحم . . . إلى أفق الحياة الأرضية.

فهل بعد هذا كله، قدرة لمقتدر ؟

ويقول العلم الحديث كذلك : إن الجينات أو المورثات، ليست واحدة فى كل الحيوانات المنوية، ولا هى واحدة فى كل البويضات، ومن ثم « تأتى لعبة القدر »، « لتحدد أى الأمشاج المذكرة، يقابل أى الأمشاج المؤنثة».
« وهذا هو السر فى تباين الأفراد، فلو أن أباً أنجب عشرين من البنين، من زوجة واحدة، لكان الأرجح أن يختلف الإخوة العشرون، بعضهم عن بعض، اختلافاً كبيراً، مع أنهم يشتقون من معين وراثى واحد »[1].

وما يقول العلم : إنه (لعبة القدر)، يقول الإيمان : إنه (إرادة الله)، لأن إسناد الأمر كله إلى القدر، إسناد إلى المجهول — وإسناد الأمر كله إلى الله، إسناد إلى المعلوم، والعملية كلها ليست مجهولة، وإنما اكتشفها العلم ذاته، واكتشف أن الحيوانات المنوية، وهى حيوانات وحيدة الخلية

---

(١) الدكتور عبد الحافظ محمد حلمى : الوراثة — رقم (٧٩) من (المكتبة الثقافية) — دار القلم بالقاهرة — ١٥ فبراير ١٩٦٣، ص ٧٧.

نافهة ، تتصارع فى تسابقها فى اتجاه واحد ، هو الرحم ، لتقتحمه ، وأن كلا منها يتم مسيرته فى اتجاه واحد أيضاً ، هو بويضة الأنثى ، حيث يقتحم جدارها الخارجى ، «ويظل يمعن فى سيره ، حتى تلتصق نواته بنواة البويضة ، وهكذا تنشأ البيضة المخصبة أو اللاقحة ، أو البذرة ، التى بها ومنها تبدأ حياة الجنين »[1] .

فهى إرادة الله ، تسير وتوجه ، منذ البداية ، ولا يمكن أن تكون — مطلقاً — (ضربة حظ) ، أو (لعبة قدر) ، وإلا لتخبط هذا الحيوان (المنوى) البدائى البسيط فى سيره .. إذا قدر له أن يسير .

ولقد كانت هذه (الإرادة) الإلهية ، هى نقطة التحدى الكبرى ، لكل المنكرين لهذه الإرادة ، منذ الإنسان الأول ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها .

فاقتدار الإنسان العلمى اليوم ، واقتداره المتوقع غداً ، لم — ولن — يمكنه من أن (يخلق) حيواناً منوياً ، أو بويضة أنثوية ، ولم — ولن — يمكنه من أن يهب هذا الحيوان أو تلك البويضة ، القدرة على أن تلتحما ، أو أن تخصبا ، ولم — ولن — يمكنه من أن يتحكم فى (جنس) المولود ، بعد الإخصاب أو قبله ، ولا من أن يتحكم فى صفة من صفاته ، فيوجهها كيف شاء .. وإنما كل مقدرة العلم الحديث اليوم وغداً ، هى : أن يشاهد فقط ، ثم يتدخل ، بقدر المتوفر لديه من العلم ، ليهيئ للجنين بيئة أفضل ، أو جواً أحسن ، أو غذاء أكمل .

---

(١) دكتور فؤاد البهى السيد (المرجع الأسبق) ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

والعلم الحديث ، وهو يشاهد ويلاحظ ، يرى ما يراه القرآن الكريم من تطور، تمر به هاتان الخليتان الأوليتان فى تطورهما :

— « ألم يك نطفة من منى يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين ، الذكر والأنثى »[1] .

— « ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين »[2] .

وبانتهاء الشهر الأول ، تتحول العلقة ، إلى مضغة Embryo ، كما يحدد القرآن الكريم فيما سبق. ويبدأ الجهاز الفقرى يتكون ، وتتصل عظام الجسم به ، و « تلاحظ الزيادة المطردة فى الحجم » ، و « تتكون أعضاء الجسم » ، و « تتضح الصفات الأساسية للجسم » ، و « فى نهاية هذا الشهر (الثانى) ، يتضح الشكل الآدمى للمضغة »[3] .

ويستمر نمو المضغة ، فتصل — مع بداية الشهر الثالث — إلى الجنين Fetus ، ثم يستمر نمو الجنين بعد ذلك ، طوال الشهر الرابع والشهر الخامس، والشهر السادس ، والشهر السابع ، فيكون « تمام النمو » ، حيث « يصل الجنين إلى درجة الطفل المولود ، ويكون مستعداً للحياة»[4] خارج الرحم .

وفى الشهرين الثامن والتاسع ، يزداد جسم الجنين كمالا ، ويزداد قدرة ، ويكون أكثر استعداداً للحياة خارج الرحم .

---

(١) قرآن كريم : القيامة — ٧٥ : ٣٧ — ٣٩ .
(٢) قرآن كريم : المؤمنون — ٢٣ : ١٣ ، ١٤ .
(٣) دكتور حامد عبد السلام زهران : علم نفس النمو (مرجع سابق) ، ص ٨٢ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٨٥ .

ويزداد وزن الإنسان « فى هذه المرحلة ، من بدايتها ، حتى الميلاد ، حوالى ٦٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ مرة ، بينما يزداد وزن الفرد، منذ ميلاده حتى رشده ، حوالى ٢٠ مرة »(١) فقط.

انسان وانسان :

وهكذا يقذف رحم الأم بالإنسان إلى هذه الحياة ، بعد أن يكون قد استوى عوده ، وصار قادراً على تحمل مصاعب الحياة ومشقاتها، على الأرض.

ويخرج من الرحم الواحد أكثر من إنسان ، ولكن كل واحد يختلف عن الآخرين ، فهذا طفل ، وهذه طفلة ، وهذا — بعد الكبر — عصبى المزاج ، وذاك هادئ ، وهذا .. وذاك . . .

ويعود هذا الاختلاف ، أو تلك الاختلافات ، إلى أن كل إنسان ، إنما هو نتيجة لعوامل متعددة ، تختلف — فى كل شىء — عن العوامل التى تؤثر فى إنسان آخر، « فشكل الجسم مثلا ، يعتمد فى جوهره على عدد من هذه المورثات » أو الجينات Genes (٢) ، و « تؤدى هذه المورثات وظيفتها بالطرق التالية :

١ — بتفاعلها — فتؤثر وتتأثر بعضها ببعض .

٢ — بتفاعلها مع المواد التى تصل إليها من البيئة الخارجية ، التى تحيا بها الخلية .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٥ .

(٢) ونذكر هنا بما قلناه من قبل ، من أن عدد هذه المورثات أو الجينات، ٤٨٠٠ مورث ، هى عبارة عن ٢٤ صبغيا أو كروموزوما فى الحيوان وى ، ومثلها فى البويضة ، فيكون مجموعها ٤٨ صبغيا ، مضروبة فى مورث ، يحتوى عليها كل صبغى .

٣ — بتفاعلها مع المادة الداخلية للخلية ، أى مع سيتوبلازم Cytoplasm الخلية ، أو حشوتها .

٤ — بتفاعلها مع النتائج الكيميائية للمورثات الأخرى»[1] .

فالعملية معقدة غاية التعقيد ، ويصعب إخضاعها — بتعقيدها هذا — للون من ألوان التحكم أو التوجيه ، البشريين ، مهما بلغت دقة الأدوات المستخدمة في هذا التحكم، أو ذلك التوجيه .

وتبقى — مرة ثانية — إرادة الله وحدها ، لتصنع كل شيء .

وهكذا « تتفاعل العوامل الوراثية المختلفة ، مع عوامل البيئة ، عضوية كانت أو غذائية أو نفسية أو عقلية أو اجتماعية ، أو غير ذلك من الألوان المختلفة للبيئة ، في تحديد صفات الفرد ، وفي تباين نموه ، ومسالك حياته ومستويات نضجه ، ومدى تكيفه وشذوذه »[2] .

ويحدد مسار هذا التفاعل كله ، الله العلى القدير ، منذ البداية ، وفي كل مرحلة من مراحله .

ويكفي أن نعلم — كما سبق — أن عدد الحيوانات المنوية في كل قذفة يتراوح بين ٢٠٠ مليون و ٣٠٠ مليون حيوان ، وأن واحداً من هذه الملايين الـ ٢٠٠ أو الـ ٣٠٠ ، هو الذي يحدد نوع الجنين، ذكراً أو أنثى[3] ، وأن « تحـ

---

(١) دكتور فؤاد البهى السيد : الأسس النفسية للنمو (مرجع سابق) ، ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٣) من الغريب أن الحيوان المنوى للذكر ، هو الذى يتسبب في نوع الجنين (ذكر أو انثى) ، لا بويضة الأنثى ، كما يفهم الأميون والجهلاء

نوع المولود، يرجع فى جوهره إلى الصدفة أو الاحتمالات ،التى يعجز العلم عن التنبؤ بها »[1] .

وما يقول العلماء عنه : إنه صدفة أواحتمال ، نقول عنه نحن — كما سبق — إنه إرادة إلهية[2] ، لأن الكون والحياة ، لو كانت تسير على أساس الصدفة والاحتمال ، لفسد الكون ، وفسدت الحياة ، ولكان مستحيلا أن يكون هناك هذا الاطراد والانتظام العجيب ، الذى يستفيد به العلم فى النهاية، فيخرج على الناس (بنظرياته) ، التى لا تزيد على أن تكون كشفاً لسنن الله ونواميسه وقوانينه ، فى خلقه ، فى السموات والأرض ، وفى الإنسان ، لا إضافة إلى هذه السنن أو النواميس أو القوانين .

وقد كانت هذه المسألة بالذات ، مما تحدى به الله سبحانه الإنسان ، فى كل زمان ومكان ، واعتبرها دليلا من دلائل قدرة الله :

— « إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس : ماذا تكسب غداً ؟ وما تدرى نفس : بأى أرض تموت؟ إن الله عليم خبير »[3] .

— « لله ملك السموات والأرض ، يخلق مايشاء ، يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً ، إنه عليم قدير »[4] .

---

(١) دكتور فؤاد البهى السيد : الأسس النفسية للنمو (المرجع السابق) ، ص ٥٦ .
(٢) ارجع الى ص ٢٢ ، ٢٣ من الكتاب .
(٣) قرآن كريم : لقمان — ٣١ : ٣٤ .
(٤) قرآن كريم : الشورى — ٤٢ : ٤٩ ، ٥٠ .

والقرآن الكريم ، عندما يشير إلى ذلك كله ، لا يشير إليه من باب (العرض العلمى) ، وإنما من باب (التحدى) الذى يثبت به قدرة الله .. تذكيراً بالحياة الآخرة — حياة ما بعد الموت — التى رفضها الملحدون قديماً ، من باب القصور العقلى ، ويرفضها الملحدون حديثاً من باب العناد والمكابرة والغرور ، وهى أدواء أشد فتكا وتخريباً من داء القصور العقلى ذاته ، لأنها ألوان من القصور العقلى ، وليست لوناً واحداً منه .

ولذلك ترد آيات الخلق الأول فى كتاب الله عادة ، مقرونة بالخلق الآخر أو مقرونة بالحياة بعد الموت :

— « ... فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون »(١) .

— « ... فجعل منه الزوجين ، الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر أن يحيي الموتى ؟ »(٢) .

— « ... يخرج من بين الصلب والترائب . إنه على رجعه لقادر . تبلى السرائر . فما له من قوة ولا ناصر »(٣) .

التكوين البيولوجى للانسان :

يعتبر (التراب) ، هو المادة الأولية لتكوين الإنسان البيولوجى ، كان هذا التراب — كما سنرى فيما بعد — هو المادة الأولية للإنسان الأول آدم ، ولا يزال هو المادة الأولية للإنسان المعاصر ، وسيظل المادة الأولية للإنسان ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

---

(١) قرآن كريم : المؤمنون — ٢٣ : ١٤ — ١٦ .
(٢) قرآن كريم : القيامة — ٧٥ : ٣٩ ، ٤٠ .
(٣) قرآن كريم : الطارق — ٨٦ : ٧ — ١٠ .

إلا أن هذا (التراب) ممزوج بالماء ليتشكل — بعد ذلك — على النحو الذى أراده الله سبحانه .

والتراب الممزوج بالماء ،حصيلته هى : (الطين) .

وقد كان هذا التراب الممزوج بالماء ، أو الطين ، هو المادة الأولية التى خلق منها أبو البشر آدم :

— « الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين »(١) .

— « قال (إبليس) : أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين »(٢) .

ولا يزال هذا التراب كذلك،هو المادة الأولية للإنسان المعاصر ، الذى وصل — باقتداره العلى — إلى آفاق السماء ، فمن التراب خلق هذا الإنسان، وعليه يعيش ، وإليه يعود .

« لقد خلق الإنسان من تراب الأرض ، ولهذا السبب تتأثر وجوه نشاطه الفسيولوجية والعقلية تأثراً كبيراً ،بالتكوين الجغرافى للبلد الذى يعيش فيه ، وطبيعة الحيوانات والنباتات التى يطعمها عادة . كذلك يتوقف بناؤه ووظائفه ، على اختياره لعناصر معينة ، من بين الأطعمة النباتية والحيوانية ، الموضوعة تحت تصرفه »(٣) .

والتراب — كمادة أولية — ليس (المادة الأولية) للإنسان وحده ، لكنه المادة الأولية لكل حيوان ، يدب على الأرض .

---

(١) قرآن كريم : السجدة — ٣٢ : ٧ .
(٢) قرآن كريم : ص — ٣٨ : ٧٦ .
(٣) الكيسيس كاريل : الانسان ، ذلك المجهول — تعريب شفيق أسعد فريد — مكتبة المعارف — بيروت — ١٩٧٤ ، ص ١٠٥ .

كل ما فى الأمر، أن هذه (المادة الأولية) قد تشكلت فى الإنسان ،على نحو مختلف عن النحو الذى شكلت عليه فى الحيوان ، بل إنها شكلت فى الحيوان ، على أنحاء كثيرة ، فقد شكلت فى الحمار مثلا ، على نحو مغاير للشكل الذى شكلت عليه فى القرد ، أو الأسد ، أو الغزال ، أو الحمامة ، أو الغراب .

وهى قدرة عظيمة ، لإله عظيم ، رأينا لهـا شبيهاً من قبل ، فى الكتاب السابق ، عن (الكون) ، الذى رأينا أن (مادته الأولية) واحدة ونظامه واحد أيضاً (١) .

قدرة عظيمة ، أن تكون (المادة الأولية) واحدة ، ومع ذلك (يتشكل منها ملايين الملايين من المخلوقات ، المختلفة فيما بينها فى كل شىء، وإن تشكل — بعد ذلك — فى مجموعات ، بقدر ما بين كل مجموعة منها من قدر من التشابه ، فى الشكل أو فى التكوين .

وليست هذه الأجهزة والأدوات ، موضوعة فى جسم الإنسان ، اتفق ، وإنما هى موضوعه فى كل جسم ، بنظام عجيب ، وبحكمة بالغة لكل منها دوره الذى تقوم به ، ولكل منها صلته بغيره من الأج والأدوات .

وأكثر من ذلك ، أن هذه الأجهزة والأدوات جميعاً ، تربطها فيما ب على نحو غاية فى الدقة و الإتقان ، مجموعة من (الأسلاك) ، تتصل بجهاز (مرك

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : الاسلام والكون — الكتاب الثا سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — دار الفكر العربى — يونيو ٧ ص ٢٩ وما بعدها .

واحد، يستطيع الإنسان من خلاله، أن يحس (بذاته)، وبتفرده عن غيره من بني جنسه .

« إننا نتحير » — على حد تعبير المفكر الهندى الإسلامى، وحيد الدين خان — « إذا رأينا النظام المعقد لأسلاك التليفون، ونتحير إذا وجدنا أن مكالمة من لندن إلى ملبورن باستراليا تتم، فى بضع ثوان، فإذا كان تعقيد نظام أسلاك التليفون يوقعنا فى هذه الحيرة، فما بالنا بنظامنا العصبى، وهو أوسع من هذا النظام وأشد تعقيداً ؟! إن ملايين الأخبار تجرى على أسلاك نظامنا العصبى — الذى أوجدته الطبيعة — من جانب إلى آخر، ليل نهار. وهذه الأخبار هى التى توجه أعضاء القلب فى تدفقها، وفى حركتها، وتتحكم فى حركات الأعضاء المختلفة، وتتحكم فى الحركات الرئوية . ولو لم يكن هذا النظام موجوداً فى أجسامنا، لصارت الأجسام تلفيقاً لأشياء مبعثرة، تسلك كل منها مسلكها الخاص »[1] .

ويملك الإنسان — فى رأى العلم الحديث — « جهازين عصبيين، لهذا الغرض : الجهاز الرئيسى، أو الشوكى المخى، وهو الجهاز الواعى الإرادى، الذى يأمر العضلات . والجهاز السمبثاوى، وهو جهاز ذاتى الحركة، لا شعورى، يضبط الأعضاء . ويعتمد الجهاز الثانى على الجهاز الأول . هذا الجهاز المزدوج، يضفى على تعقيد جسمنا، البساطة اللازمة لنشاطه فى العالم الخارجى »[2]، حيث نرى « الجهاز العصبى الآلى » « يمكن » « كل

---

(١) وحيد الدين خان : الاسلام يتحدى، مدخل علمى الى الايمان — ترجمة ظفر الاسلام خان — مراجعة وتقديم دكتور عبد الصبور شاهين — الطبعة الخامسة — المختار الاسلامى — ١٩٧٤، ص ٥٤ .
(٢) الكسيس كاريل (مرجع سابق)، ص ١١٢ .

عضو من أعضاء الجسم الداخلية ، من التعاون مع الجسم كله ، فى معاملاتنا مع العالم الخارجى»[1] ، فيبدو الإنسان المعقد غاية التعقيد فى أجهزته الداخلية، بسيطاً غاية البساطة أمام الآخرين .

ومن خلال هذه (الأسلاك)[2] المعقدة غاية التعقيد ، والتى تنتشر فى كل مكان فى جسم الإنسان ، تعمل أجهزة الجسم الداخلية عملها ، دون تدخل من الإنسان فيها ، فمن خلالها يدق القلب ، وتعمل المعدة ، وتفرز الغدد وتمتلئ المثانة وتفرغ ، وتقوم الأذن والعينان والأنف وغيرها بوظائفها .

ومن خلال هذه (الأسلاك) أيضاً ، يتصل الكيان الإنسانى، بالعالم الخارجى المحيط به ، فيسمع ويرى ويشم ويتذوق ويأكل ويشرب ويتبو ويتبرز ويتحدث .

ومن خلالها كذلك ،(يتعامل) الإنسان مع العالم الخارجى ، على معين ، فى أمور حياته اليومية .

ومن خلالها ، يتغلب على ما يعترضه من صعوبات ، ويستطيع تا هذه الصعوبات .

فهل كان غريباً — بعد ذلك — أن يلفت القرآن الكريم الإنسان نفسه ، مثلما يلفت نظره إلى ماحوله :

— « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون ؟ »

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١٩ .

(٢) ثمة اتصال (لاسلكى) أيضا ، يربط بين الانسان و الناس ، وبينه وبين الكون ، وليس هنا الآن مجاله ، وانما نعو بشىء من التفصيل ، فى كتابنا التالى ، عن (اليوم الآخر) باذن ا

(٣) قرآن كريم : الذاريات ـ ٥١ : ٢٠ ، ٢١ .

وهذا (الـكيان البشرى) ، بكل أجهزته ومعداته ، وبكل (أسلاكه) المعقدة غاية التعقيد ، عبارة عن (مصنع) كامل متـكامل ، يحصل على (المادة الخام) التى يريدها من البيئة المحيطة به ، لتمر فى داخله بمجموعة من العمليات البيولوجية المعقدة ، تـكون نتيجتها استمرار حياته ، أو نموه ، مضافاً إلى ذلك (عادم)، يقذف به إلى العالم المحيط به .

فهو يحصل من البيئة المحيطة به على الطعام والشراب ، ويأخذ من هواء الجوالأوكسجين ، ومن خلال العمليات المعقدة التى يمر بها ذلك كله ، يتحول الأوكسجين إلى عادم ثانى أوكسيد الـكربون ، ويتحول الطعام والشراب إلى عادم البول والبراز والعرق ، ويحصل الإنسان من خلال هذه العمليات المعقدة ، على (الطاقة) ، التى يدور بهـــا (مصنعه) ، وهى الدم ، يتجدد بشكل مستمر .

يتم ذلك كله ، والإنسان جالس أو واقف — نائم أو مستيقظ ، سعيد أو مغتم ، فلا دخل للحالة التىهو عليها،فى حدوث ما يحدث ، وإنمـا(المصنع) كله (ذاتى الحركة) ، يعمل بإرادة إلهية عليا .

تفـــرد الانسان :

رأينا أن العلم الحديث ، يؤكد أن الإنسان — والحيوانوالطير — تتأثر فى نموها بعدد من العوامل ، أولهـــا « الوراثة Heredity » ، التى تمثل « كل العوامل الداخلية ، التى كانت موجودة عند بداية الحياة ، أى عند الإخصاب » ، والتى يرثها « عن طريق المورثات (الجينات) genes ، التى تحملها الصبغيات (الـكروموزومات) Chromosomes ، التى تحتويها البويضة

الأنثوية ovum ، المخصبة من الحيوان المنوى الذكرى Sprem ، بعد عملية الجماع الجنسى » .

وثانيها « البيئة Environment » ، التى تمثل « كل العوامل الخارجية ، التى تؤثر تأثيراً مباشراً أو غير مباشر على الفرد ، منذ أن تم الإخصاب » .

و « يكاد يكون من الصعب فصل أثر الوراثة عن أثر البيئة ، إلا من الناحية النظرية » .

وثالثها « الغدد Glands » ، التى تفرز « (الهرمونات) » . وهى « نوعان : الغدد الصماء ، أو اللاقنوية ، التى تطلق إفرازاتها (الهرمونات) فى الدم مباشرة » ، و « الغدد القنوية : وهى التى تطلق إفرازاتها فى قنوات ، إلى المواضع التى تستعمل فيهـــــا ، مثل الغدد اللعابية والغدد الدهنية والغدد العرقية » .

ورابعها « الغذاء Diet » ، وخامسها « النضج Maturation » ، الذى يتضمن « عمليات النمو الطبيعى التلقــــائى » ، وسادسها « التعلم Learning »[1] .

والإنسان — وكذا الحيوان — يختلف رغم ذلك كله — عن غيره من الناس، فى كل عامل من هذه العوامل منفرداً، وفى كل هذه العوامل مجتمعة ، فالإنسان — فى نظر العلم الحديث — على سبيل المثال — فرد فى كل شىء ، حيث « تطبع الفردية جميع أجزاء الجسم المركبة ، فهى موجودة فى العمليات الفسيولوجية ، كما هى موجودة فى التركيب الكيمائى للأخلاط والخلايا .

---

(١) دكتور حامد عبد السلام زهران : علم نفس النمو (مرجع سابق) ، ص ٢٢ — ٣٢ .

ولهذا فإن كل شخص يتفاعل بطريقته الخاصة مع أحداث العالم الخارجي » .
« ويحمل الزمن الفسيولوجي أيضاً طابع فرديتنا ، فقيمته ، كما نعلم ، ليست واحـــدة لـكل إنسان . وعلاوة على ذلك ، فإنه لا يظل ثابتاً إبان مجرى حياتنا » .

و « كل فرد يدرك أنه فريد . وهذه الوحدانية حقيقية . ولـكن هناك اختلافات كبيرة في درجة الفردية » .

و « لوحدانية الإنسان أصل مزدوج . فهي تأتي ، في وقت واحد ، من تركيب البويضة التي ينشـــأ منها ، وكذا من تطوره ونموه ، ومن تاريخه »[1] .

وهكذا يؤكد العلم الحديث تفرد الإنسان .

وإذا كانت تلك حقيقة يؤكدها العلم الحديث ، فقد سبق القرآن الـكريم العلم الحديث إلى تقريرها بأربعة عشر قرناً من الزمان ، وزاد القرآن الـكريم على ذلك ، أن هذا التفرد ليس بقاصر على الإنسان وحده ، بل إنه يمتد ليشمل خلق الله الـكثير ، في السماء والأرض ، فلا يوجد مخلوق من مخلوقات الله — في نظر القرآن — مشابهاً لمخلوق آخر ، حتى ولو كان من بني جنسه ، وعلى هذا الأساس سيكون بعث كل المخلوقات يوم القيامة ، وسيكون حسابهم :

— « إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عداً . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً »[2] .

---

(١) ألكسيس كاريل (مرجع سابق) ، ص ٢٧٥ — ٢٨٥ .
(٢) قرآن كريم : مريم — ١٩ : ٩٣ — ٩٥ .

فهى فردية لاتنطبق على الإنسان وحده ، وإنما تمتد لتشمل خلق الله جميعاً ،ما نرى منها وما لا نرى.

وهو حساب — يوم القيامة — لايقف عند حد الإنسان ، وإنما يتعداه إلى خلق الله جميعاً ، بناء على هذه الفردية .

ورغم اشتراك الإنسان مع خلق الله جميعاً فى هذا (التفرد) ، فإنه — لأسباب سنراها فيما بعد — أكرم خلق الله جميعاً من وجهة نظر الإسلام .

وما خلقه الله يوم خلقه،إلا ليكون سيد المخلوقات ، فقد خلقه الله سبحانه — يوم خلقه — ليكون خليفة له فى الأرض ، ومن أجل ذلك أمر الملائكة بأن تسجد له يوم خلقه :

— « وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إنى أعلم مالا تعلمون . . . . وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس ، أبى واستكبر ، وكان من الكافرين »[١] .

ولسنا بقادرين على الحديث عن سر هذا التكريم ومظاهره فى هذا الفصل ، الذى نقصره على التكوين البيولوجى أو الفسيولوجى للإنسان ، وإنما نرجئه إلى حينه ، فى فصول الكتاب التالية ، مكتفين بالإشارة إلى مظاهر الكمال الجسمى الإنسانى .

ومرة ثانية ، يقول العلم الحديث : إن الجسم الإنسانى ، على عكس ما يبدو للنظرة الخاطفة السريعة ، « قوى غاية القوة . إنه يكيف نفسه ، تبعاً

---

(١) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ٣٠ — ٣٤ .

لجميع الطقوس ، سواء فى المناطق القطبية متناهية البرودة ، أو الاستوائية شديدة الحرارة . إنه يقاوم أيضاً الجوع ، واختلاف الطقس ، والتعب والمصاعب والإجهاد فى العمل . والإنسان هو أصلب الحيوانات جميعاً عوداً »، « ومع ذلك ، فإن أعضاءنا ضعيفة هشة ، فأقل صدمة تستطيع إلحاق الضرر بها ، كما أنها تتحلل بمجرد توقف الدورة الدموية » .

« فقوة احتماله مستمدة من مرونة أنسجته بصفة خاصة ، ومن تماسك هذه الأنسجة ، وقدرتها على النمو ، بدلا من استهلاكها »[١] .

والإنسان ضعيف ، إذا قورن بالحيوان ، أو ببعض الحيوانات على الأقل. ولكن هذا الإنسان نفسه ، بقدرة أنسجته على الاحتمال ، وتماسك هذه الأنسجة ، أقوى من أى حيوان .

فالحيوان إذا غير بيئته يموت وينقرض ، أما الإنسان ، فهو قادر — رغم ظروف البيئة — على أن يعيش ، فقد ثبت أن « الإنسان فى المناطق القطبية سمين، مكتنز بالدهن ، تماماً مثل الدب والحوت ، ليقى نفسه غائلة البرد ، وهو فى المناطق الاستوائية الحارة ، نحيل هزيل أسود ، وكأنما اخترع لجلده مظلة ، تقيه الشمس »[٢] .

وقد كان ذلك — فى نظر العلم الحديث — سر بقاء العنصر الإنسانى — منذ أقدم العصور ، إلى اليوم ، فإذا كان « جميع البشر الموجودين ، ينتمون فى الأصل إلى نوع واحد ، فالإنسان الأول كان — ولا بد — شكلا

---

(١) الكسيس كاريل (مرجع سابق) ، ص ١٣٠ .

(٢) مصطفى محمود : لغز الحياة — الطبعة الخامسة — دار العودة — بيروت — ١٩٧٤ ، ص ٦٤ .

ذا صفات عامة ، وذا إمكانات للتطور إلى جميع الأصناف المختلفة ، التى تعرفها اليوم »[١] .

وهنا يختلف الإنسان عن الحيوان ، ويتفوق عليه .

فالحيوان لا يتمتع بهذه الأنسجة المرنة ، التى تمكنه من أى يعيش فى كل مكان ، وتحت أية ظروف ، كما هو الحال فى الإنسان . وكثيراً ما أدى تغير البيئة التى يعيش فيها الحيوان إلى انقراضه ، والذين يزورون متاحف التاريخ الطبيعى، فى أى مكان فى العالم ، يستطيعون أن يرواهيا كل كثير من هذه الحيوانات . . . المنقرضة .

وقد يكون هذا الامتياز والتفوق ، لوناً من ألوان تكريم الله سبحانه لخليفته ، وقد يكون لوناً من ألوان تمكينه من أن يقوم بمهام ذلك الاستخلاف، وينهض بتبعاته .

على أن هذا التفوق البيولوجى، ليس كل ما كرم به الإنسان ، وإنما هناك أوجه تكريم كثيرة ، كرم الله بها الإنسان .. موضعها الفصول التالية .

---

(١) رالف لنتون : دراسة الانسان — ترجمة عبد الملك الناشف — منشورات المكتبة العصرية — صيدا — بيروت — ١٩٦٤ ، ص ٤٤ .

الفصل الثاني

الإنسان ... نفسياً

تقـــديم :

ووصولنا إلى الجهاز العصبي للإنسان ، يصل بنا — أردنا أم لم نرد — إلى الجانب النفسي فيه ، فالجانب النفسي من الإنسان،قائم على جهازه العصبي هذا — كما سنرى .

ورغم أننا رأينا أن الله سبحانه وتعالى، قد حبا الإنسان بمزية ، حرم منها الحيوان والطير ، وهي مرونة أنسجته ، بحيث تمكنه من الحياة في أجواء مختلفة ومتباينة ، فإن الدراسة المقارنة بين الإنسان والحيوان ،تؤكد ما قلناه في الكتاب الأول من السلسلة ، من أن « الحيوان يفضل الإنسان في بعض الحالات » ، « فالإنسان — في مسألة القدرة على مواجهة الأخطار — قد يكون — بيولوجياً — أضعف من كثير من الحيوانات ، والحشرات والهوام .

ومن ثم لم تكن الناحية البيولوجية فيه مكمن قوة ، بقدر ما كانت نقطة ضعف »(1) .

ويعود تفوق الإنسان بيولوجياً على الحيوان — في الواقع — بالإضافة إن مرونه الأنسجة — إلى الجهاز العصبي المركزي في كل منهما ، فهو في

---

(1) دكتور عبد الغني عبود : العقيدة الاسلامية والأيديولوجيات المعاصرة — الكتاب الأول من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — دار الفكر العربي ، ١٩٧٦ ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

الحيوان محدود الإمكانيات ،محدود الوظائف ، بينما هو فى الإنسان بالغ الدقة، بالغ التعقيد ، وبدون دقته وتعقيده ، لا يكون الإنسان إنساناً .

ومن ثم سقط التكليف فى الإسلام عن الأطفال وعن المجانين ، لأنه — فى حالة الأطفال — يكون هذا الجهاز بدائياً، لم يكتمل نموه بعد ، وفى حالة المجانين، يكون هذا الجهاز فى حالة شلل تام .

فالجهاز العصبى المركزى فى الحيوان، قاصر على الأفعال وردود الأفعال ، بينما هو فى الإنسان الناضج ، يتعدى الأفعال وردود الأفعال ، إلى إمكانية استرجاع الماضى ودراسته وتحليله ، واستكشاف الحاضر ، وإقامة علاقات جديدة بين أجزائه، واقتحام المستقبل، تصوراً لأبعاده، وسعياً لخلقه وتشكيله، على نحو ما يريد الإنسان أو يحب .

وهو — بالإضافة إلى هذا وذاك — قادر على أن يصل الإنسان بما لا يراه ومالا يمسه ، بأجهزته العصبية المحدودة .

ورغم ذلك كله ، فالجهاز العصبى للإنسان وعاؤه جسده ، وهو ليس بمعزل عن هذا الوعاء ، ولا يستطيع أن يعيش بمعزل عنه ، بل إن «الكيان الجسدى أو البيولوجى ، هو الأساس الذى تقوم عليه الشخصية كلها ، وهو أساس نمو الشخصية، فى كافة النواحى ، طوال حياتها»[1] .

ومن ثم كانت الحاجات البيولوجية للإنسان، محوراً أساسياً من محاور نشاط هذا الجهاز العصبى

---

(1) CURTIS, JACK H. : Social Psychology; Mc Graw-Hill Book Company, Inc., New-York, 1960, p 157.

وحول هذه الحاجات البيولوجية ، تدور معظم دوافع السلوك ، فى علم النفس الحديث .

دوافع السـلوك :

يعتبر الجهاز العصبى فى الإنسان والحيوان على السواء ، أكبر نعمة منحها الله مخلوقاته ، على النحو الذى يناسب حياة كل مخلوق ، من هذه المخلوقات .

فهى تمكنه من الاتصال بالعالم الخارجى المحيط به ، والتعامل مع هذا العالم .

وهى ـ أيضاً ـ تمكنه من الاتصال بعالمه الداخلى ، والتصرف إزاءه .

وبدون هذا الجهاز العصبى ، لم يكن الإنسان — والحيوان — ليحس بآلام الجوع ، حتى يموت ، ولاليحس — وهو يأكل أو يشرب — بحصول معدته على حاجتها من الطعام أو الشراب ، حتى تنفجر ، ولا ليحس بامتلاء مثانته بالبول ، حتى تنفجر أيضاً ، ولا ليحس بالميكروبات تهاجم أمعاءه ، أو أى جزء من أجزاء جسمه ، أو عضو من أعضاء هذا الجسم ، حتى تجهز عليه تماماً .

فهى — على ذلك — (ترمومتر) دقيق للإنسان ، (يضبط) به الإنسان توازن جسده ، حتى لا يختل هذا التوازن ، فيكون الهلاك .

ذلك أن الأعصاب المتغلغلة فى مختلف أنحاء الجسم ، من أقصاه إلى أقصاه ، تبعث إلى الجهاز العصبى المركزى ، بإشارات مستمرة ، بالحالة التى عليها كل جهاز[1] ، فإذا جاع الإنسان ــ أو الحيوان ــ مثلا ، توترت أعصاب

(١) ارجع الى ص ٣٠ ــ ٣٢ من الكتاب .

معدته ، وبعثت بإشاراتها ، عبر تلك الأسلاك العصبية ، إلى المخ (الجهاز العصبي المركزي) ، فيعلن (المخ) (حالة الطوارئ) ، وتظل تلك الحالة معلنة ، حتى يتحرك الإنسان ــ أو الحيوان ــ لملء المعدة ، فترسل ــ بعد ملئها ــ بإشارات جديدة ، معلنة إنهاء (حالة الطوارئ) تلك .

وما يقال عن حالة الجوع ، يمكن أن يقال عن العطش ، وعن الرغبة في الإخراج ، ومداهمة الميكروبات لجزء من أجزاء الجسم ، وما إلى ذلك .

ويسمى إعلان المخ لحالة الطوارئ على هذا النحو ، في علم النفس الحديث ، بالتوتر .

ويقول علم النفس الحديث ، إن الإنسان تسيره في حياته مجموعة من الغرائز Instinctives ، التي هي « قوى دافعة ، تعمل على المحافظة على الفرد والجماعة والنوع »(١) ، على نحو ما رأينا منذ قليل ، عند حديثنا عن دور الجهاز العصبي في المحافظة على حياة الإنسان ، وذلك لأنها تهدف « إلى خفض حالة التوتر لدى الكائن ، وتخليصه من حالة عدم التوازن »(٢) .

فالغريزة تشير إلى الفعل ، ورد الفعل التلقائي ، الناتجين عن حدوث (خلل) ما في جزء من أجزاء الجسم ، يثير هذا الجهاز العصبي ، فيتحرك الكيان (الحيواني) كله ، لإزالة أسباب هذا (الخلل) .

وقد تعمدت أن أصف الكيان (بالحيواني) ، لسببين ، أولها أن هذا الفعل ورد الفعل التلقائي ، لا ينطبق على الإنسان وحده ، وإنما هو ينطبق على

---

(١) دكتور حامد عبد السلام زهران : علم النفس الاجتماعي ــ عالم الكتب ــ ١٩٧٢ ، ص ١٣٠ .

(٢) الدكتور جابر عبد الحميد جابر : سيكولوجية التعلم ــ دار النهضة العربية ــ ١٩٧٢ ، ص ٣٠ ، ٣١ .

الإنسان وعلى الحيوان ، وعلى كل كائن حى ، محافظة من هذا الكائن على حياته ، وثانيهما أن ما يتحرك فى الإنسان فى حالة الفعل هو جهازه العصبى ، بطريقة آلية ، لادخل له فيها ، أو بعبارة أخرى : يتحرك فيه جانبه (الحيوانى) وحده ، وليس هذا الجانب الحيوانى فى الإنسان إلا جانباً واحداً من جوانب عديدة ، سوف نقف على بعضها فى هذا الفصل ، وعلى بقيتها فى الفصول التالية .

ولكن الإنسان لا يتصرف إزاء هذه الأمور (الحيوانية) ، بطريقة الحيوان ، فهو لا يأكل كلما جاع ، ولا يشرب كلما عطش ، وقد يتحمل الجوع والعطش ساعات وساعات .

وبعبارة أخرى : إنه يتصرف إزاء هذه الأمور (الحيوانية) ، بطريقة (إنسانية) .

ومن ثم كانت أنفة بعض علماء النفس ، من أن يسموا دوافع السلوك الإنسانى بالغرائز ، حيث « قالوا : إن الغرائز توجد بوضوح لدى الحيوان ، لكنها منظمة أو غير موجودة لدى الإنسان » ، أو أن « الغرائز موجودة عند الإنسان والحيوانات العليا ، كما هى موجودة لدى الحيوانات الدنيا ، غير أنها تتميز عند الإنسان والحيوانات العليا ، بالغايات التى تسعى إليها ، لا بنوع الحركات والأفعال ، التى تتحقق بها هذه الغايات »(١) .

ومن ثم فضل جمهور المشتغلين بعلم النفس ، أن يسموا دوافع السلوك باسمها (الدوافع) Motives أو Motivations أو Drives ، لا باسم آخر ، هو

---

(١) دكتور أحمد عزت راجح : أصول علم النفس — الطبعة الخامسة — الدار القومية للطباعة والنشر — ١٩٦٣ ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

الغرائز Instinctive ، وعرفوا الدافع، بأنه « هو التغير الذى يطرأ على الكائن العضوى ، فيدفعه إلى الحركة ، استجابة لمنبهات خارجية أو داخلية ، ولدت فيه حالة من التوتر والتفكك »[١] ، أو بأنه « قوة أو عامل أو استعداد ، أو حالة داخلية ، دائمة أو مؤقتة ، تثير السلوك الظاهر أو الباطن — فى ظروف معينة — وتواصله ، حتى ينتهى إلى غاية معينة »[٢] .

كما عرف هؤلاء العلماء دراسة دوافع السلوك ، بأنها « إنما هى دراسة للبواعث الداخلية ، المتوغلة جذورها فى أعماق الحالات الفسيولوجية والنفسية المتقلبة ، وفى أغوار التجارب الماضية » ، « تبحث فى المصادر الباطنية المحركة لتصرفاتنا ، والمنابع الأصلية ، التى يتفجر منها سلوكنا »[٣] .

ورغم الأنفة التى يحسها الإنسان ، من إيجاد جمهور المشتغلين بعلم النفس، لأى تشابه بين الإنسان والحيوان ، فى مسألة دوافع السلوك ، فإن الإنسان لايملك إلا أن يحس أيضاً ، بأنها أنفة لفظية أو كلامية ، لاتكاد تنتقل إلى حيز التطبيق العملى ، حتى ترتد إلى اعتراف (بحيوانية) الإنسان أمام غرائزه ، وذلك لأن علم النفس الحديث كله، يقيم نظرته إلى الإنسان، على هذا الأساس (الحيوانى) .

ولاتبدو (حيوانية) الإنسان ، فى معالجة علم النفس له ، بوضوح، كذلك

---

(١) دكتور صلاح مخيمر ، وعبده ميخائيل رزق : سيكولوجية الشخصية ، دراسة الشخصية وفهمها — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٦٨ ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٢) دكتور أحمد عزت راجح (المرجع الأسبق) ، ص ٨٨ .

(٣) دكتور مصطفى فهمى : سيكولوجية التعلم — الطبعة الثانية — لجنة النشر للجامعيين — مكتبة مصر — ١٩٥٧ ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

الذى تبدو عليه، عندسيجموندفرويد Sigmond Freud (١٨٥٦ — ١٩٣٩) ، ومن ثم كان رأيه فى الإنسان ، جديراً منا بوقفة .

دوافع السلوك عند فرويد :

يقيم سجمند فرويد نظرته إلى الإنسان ، على أساس « الافتراض بأن الإنسان حيوان بشرى ، وأن الذى يقرر سلوكه إلى حد كبير ، هو الأساس البيولوجى لتكوينه . وطاقة الجنس فى هذه الغرائز ، أى اللبيدو ، هى القوة الغالبة ، الطاقة الكبرى والمحركة للحيوان البشرى ، نحو النشاط والتحقيق ، فى كل ما يعرف من وجوه النشاط ، وكل ما يمكن أن يصل إليه من ضروب التحقيق » — حتى تلك التى تتصل « بوجوه النشاط الفنى ، و لاهتمامات الروحية ، والانشغالات الذهنية » ، وذلك عن طريق «هذه العملية التى تعرف (بالتسامى) ، أو الإعلاء »[(١)] .

حتى (الروحانيات) ، وأوجه الإبداع والخلق الرائعة.. فى حياة الإنسان.. مرجعها هو الجنس، عند فرويد !!

ويعتبر « مفهوم الغريزة ، من المفاهيم الأساسية ، فى كتابات فرويد وتفكيره . ومعظم كتابات فرويد تمليها فكرته ، أن الإنسان ولد مزوداً بغرائز معينة » .

« ولقد أصر فرويد على وجود نوعين من الحوافزالإنسانية أو الغرائز ، وكلاهما بيولوجى فى طبيعته . أما النوع الأول ، فيتكون من الحاجات الجسمية البسيطة ، كالجوع والعطش والإخراج والتنفس » .

---

(١) دكتور صبرى جرجس : التراث اليهودى الصهيونى ، والفكر الفرويدى — أضواء على فكر سجمند فرويد — الطبعة الأولى — عالم الكتب — ١٩٧٠ ، ص ٢٥٠ ، ٢٥١ .

« أما المجموعة الثانية من الحوافز ، فهى تلك التى وصل إليها فرويد ، من دراسته للمرضى النفسيين . وهذه المجموعة الثانية ، يمكن تقسيمها إلى نوعين أساسيين : الأول غريزة الحياة (eros) ، وغريزة الموت (thanatos) . وقد قصر فرويد استعمال لفظ الغريزة عنده ، على هذين النوعين » . « ويطلق فرويد على القوة الحيوية الدافعة لغريزة الحياة اسم (الليبيدو) . والليبيدو هو هذا الجزء من تركيب الهو ، الذى يبحث عن إشباعه من الحوافز (الجنسية) »[1] .

وتحت غريزة الحياة — عند فرويد — تندرج « جميع الدوافع ، التى تحملنا على المحافظة على أنفسنا وعلى النوع الإنسانى ، وكذلك الدافع التى تحفزنا على الإنشاء والبناء والخلق والابتكار » ، وتحت « غريزة الموت أو العدوان » ، تندرج « مجموع الدوافع ، التى تحفزنا على الهدم والتدمير ، والاعتداء على الناس وعلى أنفسنا »[2] .

وفى ضوء الغريزة الجنسية ، تفسر ألوان النشاط — كل ألوان النشاط الإنسانى ، عند فرويد ، وفى ضوئها تفسر الأحلام عنده[3] ، وفى ضوئها

---

(١) دكتور سيد محمد غنيم : سيكولوجية الشخصية : محدداتها ، قياسها ، نظرياتها — الطبعة الأولى — دار النهضة العربية — ١٩٧٣ ، ص ٥٥٠ ٥٥١ .

(٢) دكتور أحمد عزت راجح (مرجع سابق) ، ص ١٢٤ .

(٣) للتفصيل ، ارجع — على سبيل المثال — لا الحصر — الى :
— سيجموند فرويد : خمس حالات من التحليل النفسى — الجزء الأول — ترجمة صلاح مخيمر ، وعبده ميخائيل رزق — تقديم ومراجعة مصطفى زيور — من (المؤلفات الأساسية فى التحليل النفسى) — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٧٢ .

— أنا فرويد : الأنا وميكانيزمات الدفاع — ترجمة صلاح مخيمر ، وعبده ميخائيل رزق — تقديم مصطفى زيور — من (المؤلفات الأساسية فى التحليل النفسى) — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٧٢ .

— أيضاً — يفسر النمو الإنسانى ، ابتداء من الميلاد ، وانتهاء بالموت ، بصورة تدعو إلى الضحك حيناً ، وإلى السخرية والاشمئزاز أحياناً .

فعند فرويد ، « تنحصر الفكرة الرئيسية فى النمو ، فى وجود مناطق شبقية (لذة شهوية) ، فى البدن ، يتمخض تنبيهها عن إشباعات ليبيدية . وتتغير المنطقة الشبقية المهيمنة ، تبعاً للسن ومستوى النمو ، فتتغير بالتالى علاقات الكائن مع ذاته ، ومع العالم »(١) .

ومراحل تطور النمو الليبيدى عند فرويد هى :

١ — المرحلة الفمية الاستقبالية (المصية) : وتمثل الشهور الستة الأولى من حياة الطفل ، ويتحقق فيها الإشباع الجنسى للطفل ، من مص ثدى أمه ، فإذا أحبط ، اتجه إلى مص إصبعه .

٢ — المرحلة الفمية السادية (العضية) : وتمثل النصف الثانى من السنة الأولى .

٣ — المرحلة السادية الإستية (أو الشرجية) : وتحتل العامين الثانى والثالث من عمر الطفل ، ويتحقق الإشباع الجنسى للطفل فيها ، من خلال إسته (شرجه) ، وذلك بتهييج الأغشية المخاطية للإست ، وبتفريغ البراز .

٤ — المرحلة الذكرية (أو القضيبية أو الأوديبية) : وتحتل العامين الرابع والخامس ، وفيها يكون محور التعامل مع العالم ، هو عضو التذكير أو التأنيث(٢) .

---

(١) دكتور صلاح مخيمر ، وعبده ميخائيل رزق : سيكولوجية الشخصية (مرجع سابق) ، ص ١٢ ، ١٣ .

(٢) تسمى — فيما تسمى به — بالمرحلة الأوديبية ، اشارة الى عقدة أدويب ، حيث يفسر فرويد العلاقة بين الطفل وأمه هنا بأنها علاقة جنسية تماما ، ولذلك يتعلق الطفل بأمه ، والطفلة بأبيها .

٥ — مرحلة الـكمون : وتحتل الفترة ما بين السادسة والبلوغ ، وفيها تضعف الحوافز الغريزية ، بفعل الأوضاع الثقافية والاجتماعية وحدها .

٦ — المرحلة التناسلية : وتبدأ مع المراهقة[1] .

ألم أقل : إن تفسـير النظرية للحياة ، يتم بصورة تدعو إلى الضحك والسخرية والاشمئزاز ؟ !

ولذلك غدت النظرية — بالفعل — قديمة وبالية ، وداستها نظريات أحدث ، ولـكنها لا تزال ناقصة .. كما سنرى فيما بعد .

انواع دوافع السلوك :

يقسم علم النفس الحـديث دوافع السلوك ، إلى نوعين أساسيين من الدوافع ، هما :

« ١ — دوافع أولية Primary Drives ، وهي حاجات فزيولوجية أو بيولوجية ، تتصل بالأعضاء الداخلية للجسم ، كالجوع والعطش والإخراج والتعب ونقص الأوكسجين ، والحاجة الجنسية .

٢ — دوافع ثانوية Secondary Drives ، وهي مكتسبة ، يتعلمها الفرد ، نتيجة تفاعله مع البيئة ، كالحاجة إلى الاحترام والانتماء والاستقلال ، وإلى الاستحسان الاجتماعي إلخ »[2] .

---

(١) رجعنا — في عرض مراحل تطور النمو الليبيدي هذه — الى :
— الدكتور صلاح مخيمر : مدخل الى الصحة النفسية — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٧٢ ، ص ٣٨ — ٤٢ .
— دكتور صلاح مخيمر ، وعبده ميخائيل رزق : سيكولوجية الشخصية (مرجع سابق) ، ص ١٢ — ١٥ .
— دكتور سيد محمد غنيم (مرجع سابق) ، ص ٥٥٤ — ٥٦٠ .

(٢) دكتور حامد عبد العـزيز الفقي : دراسات في سـيكولوجية النمو — عالم الكتب — ١٩٧٤ / ١٩٧٥ ، ص ١٦٦ .

والدوافع الأولية — كما يبدو ، وكما سبق — دوافع ، يحركها فى الإنسان جانبه الحيوانى ، وتحريك هذا الجانب لجهازه العصبى ، أما الدوافع الثانوية ، فهى — كما يبدو — تتصل (بالضغوط) الاجتماعية ، التى تتصل (بكيفية) إشباع هذه الدوافع الأولية .

فالدوافع الأولية « هى عبارة عن استعدادات ، يولد الفرد مزوداً بها ، ولذلك فهى تسمى أحياناً بالدوافع الفطرية » ، بينما « الدوافع الثانوية تنشأ بعد ذلك ، فى ظل الظروف المختلفة للفرد ، وتتأثر إلى حد كبير بالبيئة المحيطة به »[1] .

وثمة تقسيم آخر لهـــــذه الدوافع أو الغرائز ، يميل إليه عالم النفس الأمريكى ماكدوجل Mc Dougall ، وهو تقسيمها إلى « غرائز فردية ، وغرائز اجتماعية .

— الغرائز الفردية : وتتلخص فى غريزة البحث عن الطعام ، وانفعالها الجوع ، وغريزة التملك ، وانفعالها لذة التملك ، وغريزة الاستغاثة ، وانفعالها الشعور بالعجز ، وغريزة الهرب ، وانفعالها الخوف ، وغريزة النفور ، وانفعالها الاشمئزاز ، وغريزة الضحك ، وانفعالها الشعور بالمرح والتسلية ، وغريزة الحل والتركيب ، وانفعالها لذة الابتكار ، وهى تتصل بغريزة الاستطلاع .

— الغرائز الاجتماعية : وتتلخص فى الغريزة الجنسية ، وانفعالها الشهوة ، وغريزة الوالدية ، وانفعالها الحنو ، وترتبط بالغريزة الجنسية ، وغريزة

---

(١) دكتور مصطفى فهمى : سيكولوجية التعلم (مرجع سابق) ، ص ١١٨ — ١٢٠ .

السيطرة ، وانفعالها الزهو ، وغريزة الخنوع ، وانفعالها الشعور بالنقص ، وهى تتصل اتصالا عكسياً بغريزة السيطرة ، وغريزة المقاتلة ، وانفعالها الغضب، وغريزة التجمع ، وانفعالها الشعور بالوحدة والعزلة »[١] .

على أن هناك رأياً قوياً بين المشتغلين بعلم النفس ، يدعو إلى عدم تقسيم الغرائز أو دوافع السلوك ، على نحو أو آخر ، لأنها — جميعاً — متقاربة ومتداخلة ، أو بعبارة أصح ، متكاملة ، ولذلك « يصعب الفصل بين ما هو فطرى وما هو مكتسب » ، تماماً كما يصعب الفصل بين الدوافع الأولية أو العضوية ، وبين الدوافع الثانوية ، لأن معظم الدوافع الثانوية « تستند فى الواقع إلى أساس عضوى »[٢] .

وكما أن هناك تداخلا — أو تكاملا — بين هذه الدوافع وتلك فى حياة الإنسان ، فإن هناك تداخلا — أو تكاملا — بينها مجتمعة ، وبين الجانب العقلى والجانب الاجتماعى .. والجانب الروحى ، فى الإنسان ، وتلك آفة من آفات علم النفس الحديث ، لابد من التعرض لها ، مع غيرها من آفاته .

آفة علم النفس الحديث :

تعد الآفة الأساسية لعلم النفس الحديث ،هى أنه ينظر إلى(الإنسان) على أنه (حيوان) ، ثم يجرى على هذه النظرة تجارب ، ويقيم عليها نظريات .

---

(١) دكتور حامد عبد السلام زهران : علم النفس الاجتماعى (مرجع سابق) ، ص ١٢٦ .

(٢) الدكتور صلاح مخيمر : مدخل الى الصحة النفسية (مرجع سابق) ، ص ٥٨ .

هذا ، وان كان ما يرد هنا حقا يراد به باطل ، فالدوافع جميعا — فى نظر الدكتور صلاح مخيمر وغيره من الفرويديين — تتكامل ، لتندرج فى النهاية تحت الغريزة الأم — الغريزة الجنسية ، كما سبق .

ولا يمكن أن نغفل الجانب الحيوانى من الإنسان .

ولكننا يجب — أيضاً — ألا نغفل لحظة ،عن أن هذا الجانب الحيوانى، مجرد جانب واحد ، من جوانب عديدة .

وتركيزنا على الجانب الحيوانى من الإنسان وحده — من الناحية العلمية — خطأ ، لأنه تنقصه (الشمولية) ، التى من أجل الافتقار إليها ، هوجم علم النفس الإغريقى ، وعلم النفس المسيحى ، لأن الأول ركز على العقل وحده ، ولأن الثانى ركز على الروح وحدها .

أفلا يكون جديراً بنا ، أن نهاجم علم النفس الحديث، بنفس المنطق الذى هاجم به علم النفس الحديث نفسه ،علوم النفس السابقة عليه ؟!

ولقد ترتب على هذه النظرة الخاطئة إلى الطبيعة الإنسانية ، فى علم النفس الحديث ، أن علماء النفس يبدءون تجاربهم وبحوثهم على الحيوان ، ويحصلون من التجارب على نتائج ، يطبقونها على الإنسان .

ولم يسلم من هذا المسلك الخاطئ ، حتى علم النفس التعليمى ذاته ، رغم أن بحوثه تدور حول (الذكاء) ، أو العمليات العقلية المعقدة ، فإن « كثيراً من النتائج التى توصلنا إليها خاصة بالتعلم ، إنمـــا أتت نتيجة الدراسة على الحيوان ، ونتيجة الدراسة المقارنة بين سلوك الحيوان والإنسان . فمثل هذه الدراسات » — فى نظر علماء النفس — « تتيح لنـــا أن نفهم الإنسان فهماً أفضل »[1] !!! .

وهناك — فى نظر علماء النفس — ميزتان لاستخدام الحيوان فى

---

(١) الدكتور ابراهيم وجيه محمود : التعلم — عالم الكتب — ١٩٧١، ص ٤٢ .

التجارب ، « الأولى أن من الممكن ضبط العوامل الموروثة ، خلال عملية انتقاء السلالات ، وهو أمر يكاد يكون مستحيلا بالنسبة للإنسان . الثانية : أن من الممكن فرض ضوابط دقيقة على البيئة ، أبعد بكثير مما يمكننا القيام به بالنسبة للإنسان »[١] .

أى أن هذه النظرة الخاطئة — وما يترتب عليها من نتائج — تعود إلى قصور علماء النفس ، لأنهم لو استطاعوا (ضبط) التجربة بالنسبة للإنسان ، ما لجئوا إلى ذلك .

وقصور علماء النفس ، يعنى قصور النتائج التى يحصلون عليها ، وبعد هذه النتائج عن الدقة والموضوعية معاً .

ولا أود أن أفسر القضية برمتها بهذا القصور ، ففى عصر التقدم العلمى والتكنولوجى الهـــائل الذى نعيشه ، لا يمكن أن يعزى الأمر إلى القصور وحده .

وقبل القصور وبعده ، لا أشك فى أن سوء النية متوفر .

وقد رأينا فى الكتاب الأول من السلسلة، أن فرويد، اليهودى الصهيونى، قدم نظريته برمتها ، مساهمة منه ، كصهيونى ، فى تحطيم المجتمعات الغربية — المتقدمة — من الداخل[٢] ، تمهيداً لسيطرة بنى إسرائيل — قومه —

---

(١) دكتور سيد محمد غنيم : سيكولوجية الشخصية (مرجع سابق) ، ص ٨٥ .

وارجع كذلك الى المرجع السابق ، ص ٤٢ — ٤٦ ، لمزيد من الدفاع عن وجهة نظر علماء النفس هذه .

(٢) دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الاسلامية والأيديولوجيات المعاصرة (مرجع سابق) ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

عليها وعلى العالم ، كما أكدنا ذلك في جولتنا مع إله بنى إسرائيل ، فى الكتاب الثانى من السلسلة أيضاً[١] .

وهكذا أراد فرويد تحقيق الحلم الإسرائيلى بطريقة فى الغرب الرأسمالى ، تماماً مثلما أراد ماركس تحقيق نفس الحلم الإسرائيلى بطريقة أخرى ، فى الشرق الشيوعى .

لقد « كان شعار (معاداة السامية) هو الشعار ، الذى وقع عليه اختيار اليهودية الصهيونية ، مع شعار الاضطهاد ، ليكون موضع المزايدة والاستثمار الإعلامى والسياسى ، ثم مع الأسف (العلمى) أيضاً ، للمخطط الصهيونى ، فى السيطرة على العقل الغربى . وكان خليقاً أن تكفى الإشارة إلى هذا الشعار ، فى التعريف به ، لولا أنه لقى ، دون جميع ألوان التفرقة العنصرية ، التى يكون ضحيتها غير اليهود ، من اهتمام فرويد وأصحاب مدرسته ، ما يثير الريبة فى حقيقة الأهداف ، التى رمى إليها التحليل النفسى الفرويدى ، من تكرار الحديث عن معاداة السامية »[٢] .

وهكذا ، ظهرت نظرية التحليل النفسى ، أو التحليل الصهيونى ، فى الغرب ، وكرست الصهيونية نفسها للإعلان عنها ، وإدخالها فى العقول والقلوب ، حتى نجحت ، وصارت مدرسة .

ولم تكن هذه النظرية هى النظرية الوحيدة ، التى غزت عقول الغربيين بالأسلوب الصهيونى المخطط المدروس .

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : الله والانسان المعاصر : الكتاب الثانى من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٧ ، ص ٨٠ ، ٨١ والصفحات التالية لهما .

(٢) دكتور صبرى جرجس (مرجع سابق) ، ص ٢٠٣ .

ولـكنها — بعد فترة — وجـــدت — فى الغرب — من يعلن خطأها، ويتصدى بها .

ولـكن المتحررين من النظرية، والمتصدين لها ، لم يتحرروا من أصولها، وإنما تحرروا من التفريعات وحدها ، وظلت الأصول كما هى فى الفـكر الغربى .. أن الإنسان حيوان .

وصار هذا الحيوان الإنسانى ، يوصف بأنه حيوان عاقل ، أو حيوان ذو ثقافة ، أو حيوان ... المهم أنه حيوان ، وهذا هو المهم ، ولو لم تنجح النظرية إلا فى تأصيل هذه الحقيقة الخاطئة فى الفـكر الغربى ، لـكفاها .

الفصل الثالث

الإنسان . . عقلياً

تقـــديم :

رأينا فى الفصلين السابقين ، أن الإنسان — كالحيوان — جسد ، يربط بين أجزائه الداخلية من جانب ، وبين هذا الجسد — ككل — وبين العالم الخارجى ، من جانب آخر ، جهاز عصبى ، يجمع ما تفرق من أعضائه ، ويجعل بين هذه الأعضاء وحدة وانسجاماً . وهذا « الجهاز العصبى ، هو أدق آلة فى هذا العالم الذى نعيش فيه ، كما أنه أكثر هذه الآلات تعقيداً » [1] ، و « هو الذى يتحكم فى (الميكانيزم Mechanism) الفسيولوجى للسلوك ، عن طريق الأعصاب ، المنتشرة فى جسم الكائن » [2] .

ومرة ثانية — ينظر علم النفس التعليمى ، المهتم بدراسة الجانب العقلى من الإنسان ، على أنه حيوان أيضاً ، إلا أنه حيوان (عاقل) ، وأن جهازه العصبى ، أكثر الأجهزة الحيوانية تعقيداً ، و « كلما زاد تعقيد الكائن الحى ، زادت قدرته على تعلم الأعمال الجديدة ، والتصرف فى المواقف الجديدة ، ويمكن أن يتخذ من ظهور الجهاز العصبى وتعقيده ، معياراً صالحاً ، لمدى تعقيد الكائن الحى ، فمن المعروف أن الإنسان ، وهو أكثر الكائنات الحية تعقيداً من الناحية العضوية ، يتميز بجهازه العصبى الكامل التعقيد » [3] .

---

(١) دكتور أحمد زكى صالح : نظريات التعلم ــ مكتبة النهضة المصرية ــ ١٩٧١ ، ص ١٨٢ .

(٢) دكتورة رمزية الغريب : التعلم ، دراسة نفسية تفسيرية توجيهية ــ الطبعة الثالثة ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ ١٩٦٧ ، ص ٥١ .

(٣) الدكتور أحمد زكى صالح : علم النفس التربوى ــ الطبعة الثامنة ــ مكتبة النهضة المصرية ــ ١٩٦٥ ، ص ٣٩٥ .

وهى مأساة ، أن ينظر إلى الإنسان على أنه حيوان ، كما يفعل علماء النفس .

وقد رأينا بعض فصول هذه المأساة، فيما سبق من صفحات هذا الكتاب ، ثم نرى فصلا من فصولها الآن ، وسنتابع بقية الفصول ، مع بقية الصفحات ، حتى نصل إلى الإسلام ، الذى أبى إلا أن يرى الإنسان (إنساناً) وكفى — بكل ما فى هذا الإنسان من نقاط قوة ونقاط ضعف ، وبكل ما فيه من حيوانية ونباتية وجمادية .. وملائكية أيضاً .

ولكن المأساة فى فصلها الحالى أكثر مأساوية ، من أى فصل سابق ، أو فصل لاحق ، لأن أبطالها هنا ليسوا من المشتغلين (بالأعضاء) ووظائف الأعضاء ، حيث (حيوانية) الإنسان ، وإنما هم من المشتغلين (بالتفكير)، والعمليات العقلية العليا ، حيث (إعجاز) الإنسان واقتداره .

ولكنها الحضارة الغربية الحديثة ، التى كان بنو إسرائيل وراءها — كما سبق[١] — ليسيروا بها إلى هاوية .

العقل الانسانى :

العقل الإنسانى — فى نظر العلم الحديث — شىء وهمى ، أو افتراضى ، و « النمو العقلى يمكن تحديده ببساطة ، على أنه الزيادة التدريجية فى القدرة على مواجهة البيئة ، والتكيف لها ، والسيطرة عليها » ، وهو « يتوقف على نمو المخ والأعصاب »[٢] — فى رأى علم النفس الحديث[٣] .

---

(١) ارجع الى ص ٥٢ ، ٥٣ من الكتاب .

(2) CROW, LESTER D. and CROW, ALICE : Human Development and Learning; Eurasia Publishing House (Pvt.) Ltd., Ram Nagar, New-Delhi, 1964, p. 43.

(٣) وللاسلام فى الذكاء رأى آخر ، سنشير اليه فيما بعد ، وسنفصل فيه القول فى الكتاب التالى من السلسلة عن (اليوم الآخر) .

ويرى جان بياجيه ، عالم النفس الفرنسى المشهور ، أن « ضروب السلوك ، التى نلاحظها لدى الفرد ، فى أثناء الأسابيع الأولى من حياته » ، « تتسم » « بنصيب كبير من التعقيد ، من الناحية البيولوجية . فهناك أولا أنواع مختلفة جداً من الأفعال المنعكسة ، التى تتصل بالنخاع الشوكى ، والنخاع المستطيل ، والطبقات العصبية ، فى العين والقشرة المخية نفسها »[(١)] ، كما يرى أن الطفل يولد مزوداً (بوسائل) الذكاء وأدواته ، أو (بالمادة الأولية) أو (الخام) له ، ممثلة فى جهازه العصبى ، الذى تلعب (الوراثة) دوراً كبيراً فى تشكيله ، وأن هذا الذكاء فى أول أمره « ذكاء حسى حركى ، أو عملى ، وظيفته أن يكون امتداداً لوظيفة العمليات ، التى توجد فى مستوى أدنى منه ، وهى : ردود الأفعال والأفعال المنعكسة » ، كتلك التى نراها عند أبسط صور الحيوان ، وأنه يمكن « أن تنسب التقدم العقلى إلى ضغط الوسط الخارجى ، الذى تنطبع صفاته » « فى عقل الطفل شيئاً فشيئاً » ، حيث « يؤثر هذا الضغط الخارجى ، فى التراكيب الوراثية »[(٢)] .

وهكذا ، يتطور نمو الذكاء فى الإنسان — عند بياجيه — « من ميكانيزمات بسيطة ، تتصل فى عملها أول الأمر ، بعمل الحواس ، والتكوينات البيولوجية الصرفة ، إلى أن تأخذ شكل العمليات العقلية المجردة ، الأكثر تعقيداً »[(٣)] .

---

(١) جان بياجيه : ميلاد الذكاء عند الطفل ـ ترجمة دكتور محمود قاسم ـ راجعه دكتور محمد محمد القصاص ـ مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ٣٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٥٣ .

(٣) الدكتور ابراهيم وجيه محمود (مرجع سابق) ، ص ٣٠ .

ويمكن أن نضيف إلى كلام بياجيه هذا ، حقيقة أخرى يقول بها العلم هنا ، وهى أن الإنسان والحيوان عند الميلاد ، تـكون ردود الأفعال والأفعال المنعكسة لديهما واحدة ، أو متقاربة ، وأنها تتعقد عند الإنسان بسرعة شديدة ، وتظل تتعقد — عنده — مادام حياً ، بينما يقف تعقدها عند الحيوان عند حد معين ، وذلك بسبب (بساطه) الجهاز العصبى المركزى (المخ) لدى الحيوان ، وتعقده تعقداً شديداً عند الإنسان .

ومن ثم يتطور التفـكير العقلى — فى نظر بياجيه — « من السلوك الحسى — حركى للطفل ، إلى التنظيمات الأولية العملية للوقائع والخبرات الحسية ، وأخيراً الاستدلال الصورى ، والتفـكير المنطقى والناقد »(١) — بينما لا يتعدى التفـكير العقلى عند الحيوان هذا السلوك الحسى — حركى — إلا قليلا ، وعند بعض الحيوانات العليا فقط .

ومن ثم كان البحث عن الذكاء فى داخل (الجهاز العصبى المركزى) للإنسان ، أو (مخه) ، أو (عقله) ، فقط ، أمراً بعيداً عن الصواب ، إذ لا يمكن — فى نظر العلماء — تغافل الدور الذى يقوم به (المجتمع) فى تنمية هذا الذكاء ، فالإنسان — على حـــد تعبير نورس — يتلقى من مجتمعه « التقريرات النشيطة » ، التى « تصب فى عقل الإنسان ، من خلال عينيه وأذنيه وجلده ، وأنفه ولسانه »(٢) ، والاكتشاف العظيم « لا يمكن تفسيره بتسميته إلهاماً أو عبقرية » ، لأن « أصله يمتد إلى الخبرة الاجتماعية ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(٢) NOURSE, ALAN E.: and the Editors of LIFE : The Body; LIFE-Science Library, Time-Life International (Nederland) N.V., 1965, pp. 149, 150.

وتقاليد الباحث العلمى ، ومنحى تفكيره ، والأجهزة والرموز التى تدرب على استخدامها »[١] .

فالذكاء الإنسانى ليس مجرد ظاهرة فردية ، تتصل بالجهاز العصبى المركزى للإنسان ، ولكنه ظاهرة اجتماعية أيضاً ، ومن ثم كان أمراً طبيعياً أن يوءد الذكاء فى المجتمعات المتخلفة ، وأن يشحذ هذا الذكاء ، حتى يأتى بخير ثماره ، فى المجتمعات المتقدمة ، وكانت ظاهرة (هجرة العقول) فى العصر الحديث ، من البلاد المتخلفة إلى البلاد المتقدمة .

و (اجتماعية الذكاء) هذه ، هى ما يصطلح علماء النفس التعليمى على تسميته (بتأثير البيئة فى الذكاء) .

وتجتمع العوامل البيئية مع العوامل الوراثية ، لتشكل الشكل النهائى للذكاء الإنسانى ، ولذلك فإنه « عند البحث فى أسباب الاختلافات القائمة بين الأفراد ، تدرس العوامل الوراثية للفرد ، وكذلك العوامل البيئية التى تعرض لها »[٢] .

وليست البيئة — من وجهة نظر علماء النفس — بقاصرة « على البيئة

---

(١) لانسلوت هوجبن : العلم للمواطن — ترجمة دكتور عطية عبد السلام عاشور ، ودكتور سيد رمضان هدارة — مراجعة دكتور محمد مرسى أحمد — رقم (١٠١) من (الألف كتاب) — الجزء الثالث — دار الفكر العربى — ١٩٦٣ ، ص ٢٠٥ .

(٢) آن أنستازى : « طبيعة الفروق الفردية » — ترجمة الدكتور مختار حمزة — الفصل الرابع عشر من : **ميادين علم النفس ، النظرية والتطبيقية** — التأليف باشراف ج. ب. جيلفورد — والترجمة باشراف الدكتور يوسف مراد — المجلد الثانى — الميادين التطبيقية — دار المعارف بمصر — ١٩٥٦ ، ص ٥٢٥ .

الجغرافية أو السكنية » ، بل هى « تشمل جميع (المؤثرات) ، التى يحتك بها الفرد ، منذ بدء حياته فى الرحم ، وحتى الممات »[١] .

الجهاز العصبى للانسان :

وإذا كان الذكاء الإنسانى محصلة للعوامل الوراثية التى ورثها الإنسان ، والبيئة التى احتك بها ، فإن معنى ذلك أن الجهاز العصبى للإنسان، يجب أن يكون منطلق الدراسة فى الذكاء الإنسانى ، أو فى العقل البشرى ، وذلك لأن هذا الجهاز العصبى يعتبر بمثابة (المادة الأولية) ، أو (المادة الخام) ، لهذا الذكاء .

ويرى فريمان Freeman ، أنه « تساهم دراسة أعضاء الحس والأعصاب والغدد والعضلات ، من الوجهة التشريحية والفسيولوجية ، فى فهم الإنسان ككل ، إذ أن انهيار الوظيفة الكلية ، يكاد يرجع دائماً إلى انهيار وظيفة جزء ما ، كما أن المظهر البسيط نسبياً لأى فعل صريح ، إنما يقوم على أساس من التعقيد بالغ »[٢] . كما يرى دافيز Davis أن « سمات الأفراد ، عقلية كانت أو اجتماعية أو عاطفية ، تتأثر تأثراً مباشراً بالغدد ، وبالجهاز العصبى ، وببعض الخلايا الفيزيائية ، التى تنتقل من جيل إلى جيل »[٣] .

ومن ثم قلنا فى تقديمنا للفصل الثانى : إنه لا يمكن فهم الجهاز العصبى

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٢٩ .

(٢) ج. ل. فريمان : « علم النفس الفسيولوجى » — ترجمة الدكتور صبرى جرجس — الفصل الثانى عشر من : **ميادين علم النفس ، النظرية والتطبيقية** ... المجلد الأول — الميادين النظرية — دار المعارف بمصر — ١٩٥٥ ، ص ٤٣٥ .

(3) DAVIS, ROBERT A. : Psychology of Learning; Mc Graw-Hill Book Company, Inc., New-York, 1935, p. 444.

للإنسان ، بمعزل عن جسده ، وأعضاء هذا الجسد ، ووظيفة كل عضو منها ، وأن الجسد يمثل (الوعاء) ، الذى لا يمكن أن يعيش الجهاز العصبى للإنسان بمعزل عنه[١] .

ومن هنا ، يبدو ما فى قول الإغريق ، من أن الإنسان عقل ، محمول فوق جسد ، من بعد عن الحقيقة .

ومن هنا — أيضاً — يبدو ما فى قول المسيحية ، من أن الإنسان روح وجسد ، يجب أن تكون بينهما خصومة ، من بعد عن الطبيعة الإنسانية — أيضاً .

ومن هنا — من ثم — تكون واقعية الإسلام ، فى اهتمامه الفائق بالجسد ، باعتباره الوعاء الأوحد ، للعقل وللروح ، وللذات الإنسانية ، على نحو ما سنرى فى الفصل الأخير من الكتاب .

وعود إلى الجهاز العصبى للإنسان ، الذى لا يمكن فهمه ، بمعزل عن وعائه الأوحد — الجسد ، ومن ثم كانت إشارتنا ضرورية إليه من قبل ، فى الفصل الأول ، عند الحديث عن (التكوين البيولوجى للإنسان)[٢] .

وفى هذا الجهاز العصبى ، كما رأينا فى الجسد الإنسانى من قبل ، سنرى قدرة الله واقتداره .

و « يتكون الجهاز العصبى ، مما يقرب من عشرة بليون خلية عصبية ، تختلف فى الشكل وفى العمل ، فمنها خلايا عصبية حسية أو موردة Afferent أو Sensory ، ومنها خلايا محركة أو مصدرة ، وتكون الأعصاب المنتشرة

---

(١) ارجع الى ص ٤٠ من الكتاب .
(٢) ارجع الى ص ٣٠ — ٣٣ من الكتاب .

في العضلات Efferent or Moto ، ومنها خلايا رابطة Intercellular أو Central . وهكذا ، تقسم الخلايا فيما بينها عمليات الإشراف ، وتوجيه أعضاء الجسم المختلفة ، فمنها ما تشرف على عملية التنفس وتديرها ، ومنها ما تشرف على الإبصار أو الكلام أو السمع أو القراءة ، ومنها ما يربط الإحساسات بعضها ببعض ، ومنها ما يقتصر عمله على تحريك القدم أو اليد ، ومنها ما يشرف على عمليات الإفراز أو الهضم .. إلخ ، وتجتمع كل طائفة من هذه الخلايا ، لتقوم بوظيفة خاصة ، وتسمى (مركزاً) ، وبكل مركز خلايا حاسة ، تستقبل أثر التنبيه ، وأخرى محركة ، تصدر الأمر ، الذى يكفل مصلحة الإنسان ، وتمكنه من تلبية دواعي بيئته ، ومنها أيضاً مراكز رابطة ، تربط الخلايا والمراكز ، بعضها بالبعض الآخر .

وتقع هذه المراكز في ثلاثة مستويات ، حسب درجة الشعور ، الذى يستلزمه أو يثيره كل منها .

فالمستوى الأول يشمل جميع الخلايا الحاسة والمحركة في الحبل الشوكي ، وفي بعض أجزاء قليلة من الدماغ ، وكلها مراكز للأفعال المنعكسة ، وما يشبهها من الأفعال الأوتوماتيكية » .

« والمستوى الثاني يشمل مستوى مراكز الحس والحركة التي في اللحاء ، ويطلق على مراكز هذين المستويين (المراكز السفلى) . أما المستوى الثالث أو الأعلى ، فيشمل جميع الخلايا الرابطة ، في مناطق الربط ، والتي توجد في اللحاء ، وهذه هي مراكز الشعور الكامل والذاكرة والتفكير والمهارة المكتسبة ، وما إلى ذلك من العمليات العقلية السامية »[١] .

---

(١) دكتورة رمزية الغريب : التعلم (مرجع سابق) ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

وتنوع الخلايا العصبية على هذا النحو ،لا يعنى الانفصال بينها فى الوظائف، لأن هناك خلايا ، كل وظيفتها هو الربط بين هذه الخلايا المتنوعة .

وهكذا ، تنتشر على طول الجسم الإنسانى وعرضه .. عشرة بليون خلية.. تتنوع ، ولكنها تترابط .

وتؤدى هذه البلايين العشرة من الخلايا دورها ، بشكل (انسيابى) ، لا تعقيد فيه ، فى (تسيير عجلة) الحياة فى داخل الجسم الإنسانى ، وفى تسيير عجلة هذا الجسم — ككل — فى المجتمع المحيط به ، وتقلب به صفحات الماضى السحيق ، وتخوض به غمار المستقبل والمجهول .

وتنتشر هذه البلايين العشرة من الخلايا العصبية، فى مساحة محدودة ، لاتتعدى متراً مربعاً ، ولا تزيد على ٨٠ كيلو جراماً ، هما متوسط مساحة الإنسان ووزنه ، وتؤدى كل منها دورها كاملا ، منذ اللحظات الأولى لحياة الإنسان ، وحتى وفاته ، تجدد نفسها بنفسها ، دون ما حاجة إلى إحلال أو تجديد[١] .

ولا يمكن أن تكون هذه الدقة المتناهية فى الصنع ، والدقة المتناهية فى الأداء ، والدقة المتناهية فى التجديد الذاتى ، عملا عفوياً ، كما يقول بذلك الماديون ، فى الشرق والغرب على السواء ، لأن دقة الصنع على هذا النحو لا تتم عفوياً ، وإنما هى تتم بإرادة عليا ، رأينا دقتها فى الكون كله ، فى الكتاب السابق من هذه السلسلة[٢] ، ويمكن أن نرى دقتها فى كل ما حولنا، لو قدر لنا أن نرى حقاً .

---

(١) لنا عود الى هذا الموضوع مرة ثانية ، بشىء من التفصيل ، فى كتابنا التالى عن (اليوم الآخر) .

(٢) دكتور عبد الغنى عبود : الاسلام والكون (مرجع سابق) ، ص ٢٩ وما بعدها .

دوافع التعلم :

ويكاد علماء النفس التعليمى أن يقعوا فى نفس الخطأ ،الذى يقع فيه علماء النفس الآخرون ، خاصة علماء مدرسة التحليل النفسى (فرويد وشركاه) ، حين يرون أن الإنسان لا يتحرك عقلياً ، إلا مدفوعاً بمجموعة من المثيرات، أو دوافع السلوك ... العقلى ، وأن الحاجات الفسيولوجية أو البيولوجية ، تعتبر الدوافع الأساسية للسلوك العقلى ، أو للتفكير .

وفى رأى هؤلاء العلماء ،أن « السلوك الحيوى » « يتصف » « بصفات مختلفة ، فهو غرضى ، بمعنى أنه لاسلوك دون دافع معين ، يكمن وراءه ، يحدد له الهدف الذى يرمى إليه » ، « وكى يحدث السلوك ، لابد من وجود حافز أو دافع له ، والدافع أو الحافز ، هو أى عامل داخلى فى الكائن الحى ، يدفعه إلى عمل معين ، والاستمرار فى هذا العمل،مدة معينة من الزمن ، حتى يشبع هذا الدافع »(١) .

فالإنسان الجائع لابد أن (يفكر) فى طريقة يملأ بها بطنه .

وعلى طريق ملء البطن ، لابد أن (يتعلم) الإنسان : كيف يشترى الخبز والخضروات وغيرها ، ثم لابد أن (يتعلم) كيف يطبخ أنواعاً مختلفة من الطعام ، ويتعلم ... ويتعلم . وقد (يتعلم) طريقة أخرى ،يحصل بها على وسيلة ملء بطنه ، كاللجوء إلى المطاعم أو غيرها .

وملء البطن على هذا النحو محتاج إلى المال ، ومن ثم فهو لابد أن (يتعلم) : كيف يحصل على المال ؟

---

(١) الدكتور أحمد زكى صالح : علم النفس التربوى (مرجع سابق) ، ص ٣١٤ ، ٣١٥ .

وهكذا ، بدافع ملء البطن ، (يتعلم) الإنسان ويتعلم ، وبدون هذا الدافع (الجسدى) ، لا تعلم .

وقد يرتقى الإنسان قليلا — فى نظر علماء النفس التعليمى — فيتعلم — إلى جانب إشباع حاجات جسده — إرضاء المحيطين به أيضاً ، لأنه — كحيوان اجتماعى — لا يحتاج إلى مجرد الأكل ، وإنما يحتاج — بجانبه — إلى الأمن والمحبة والتقدير والنجاح والحرية والانتماء[1] ، وتلك كلها أمور، تشبعها له الجماعة ، ولا إشباع لها بعيداً عن الجماعة .

على أن هذه الحاجات الاجتماعية، يمكن أن تفسر تفسيراً جسدياً أيضاً ، لأن الجماعة إذا لم ترض عن إنسان ، فقد تقاطعه حتى يموت جوعاً .

ومن ثم فهو يرضى الجماعة ، حتى يمكن أن يشبع حاجات جسده فى النهاية.

ولسنا ننكر أهمية الجسد وحاجاته ، كدوافع للسلوك ، بل إننا — على العكس من ذلك — نعتبر الجسد هو الوعاء للعقل والروح ، ولكل ما عدا العقل والروح ، من جوانب حياة الإنسان .

وإنما نحن ننكر أن يكون الجسد هو (كل شىء) على هذا النحو ، فى حياة الإنسان .

ونحن ننكر ذلك ، لأن الإنسان إنسان ، والحيوان حيوان .

وعندما نصيّر الإنسان حيواناً على هذا النحو ، فإننا نخطئ ، تماماً كما نصيّر الحيوان إنساناً .

---

(١) الدكتور ابراهيم وجيه محمود (مرجع سابق) ، ص ٨٥ — ٩١ .

وعندما تختل المقاييس ، فنصير الإنسان حيواناً ، والحيوان إنساناً ، فإننا لابد أن نصل إلى نتائج خاطئة ، فى بحثنا العلمى ، لأن المقدمات الخاطئة ، لا يمكن أن تؤدى إلا إلى نتائج خاطئة .

وإذا كان الإنسان — باعتراف علماء النفس التعليمى أنفسهم — عقلا وجسداً ، فلماذا لا يكون للعقل حاجاته المستقلة ، كحاجات الجسد المستقلة ، سواء بسواء ؟

ولماذا لا يكون (حب المعرفة) مطلباً إنسانياً لذاته ، بغض النظر عن حاجات الجسد ، وما يتصل بها من علاقات اجتماعية ؟

ولكنها الحيوانية الفرويدية / الصهيونية ، زرعت فى علم النفس التعليمى ، كما زرعت فى فروع علم النفس الأخرى — كما سبق .

وقد بدأ علماء النفس التعليمى (يخرجون) على هذه الحيوانية ، كما فعل أستاذنا المرحوم الدكتور أحمد زكى صالح ، الذى رأى دراسة الإنسان (كإنسان) ، فإذا « كانت أغلب النظريات السيكولوجية ، التى عالجت موضوع التعلم ، تتخذ من دراسة الحيوان موضوعاً لها ، إلا أن الدكتور زكى يوجه عناية خاصة إلى تفسير التعلم الإنسانى » ، « ويفرق بين نوعى السلوك عند الإنسان والحيوان ، ويجد من الصعب التوحيد بينهما ، خاصة وأن السلوك الإنسانى ، يعتمد فى جزء كبير منه ، على اللغة ، التى لا يستخدمها الحيوان »(١) .

إنها بداية (للتمرد) ، ولكنها مجرد بداية ، لم يطل العمر بالدكتور زكى صالح ليتمها ، وقد كان — رحمه الله — لها أهلا . وقد ترك — من بعده — مدرسة ، عليها أن تتم المسيرة ، حتى تصل ، لا إلى (إنسانية) الإنسان

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣١٢ ، ٣١٣ .

العقلية وحدها ، بل إلى (إنسانيته) الشمولية ، غير متغافلة أمر الروح فى هذا الإنسان .

وسوف نرى ما قام به أحد تلاميذ هذه المدرسة ، وهو الدكتور سيد أحمد عثمان ، خليفته على كرسى علم النفس التعليمى فى تربية عين شمس ، فى هذا المجال ، من خلال دراسته عن عالم النفس الإسلامى برهان الدين الزرنوجى ، وذلك فى الفصل الأخير من هذا الكتاب .

آفة العقل الانسانى :

معجز ذلك العقل الإنسانى ، لا شك فى ذلك .

وآية إعجازه ، ما وصل إليه من فكر واختراع ، جعل الإنسان — بحق — سيد هذه الأرض المقتدر ، وجعله — بحق — كما أراد له ربه يوم خلقه — خليفة له فى الأرض .

ومن ينكر إعجاز هذا العقل الإنسانى ، فهو يغالط نفسه .

ومنذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، تنزلت آيات القرآن الكريم ، تشيد — لأول مرة فى تاريخ الديانات الكتابية — بهذا العقل الإنسانى المعجز ، وتعتبره سبيل الإنسان إلى الهدى والتقوى والإيمان :

— « وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »[١] .

— « وإن لكم فى الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما فى بطونه ، من بين فرث

---

(١) قرآن كريم : الرعد — ١٣ : ٤ .

ودم لبناً خالصاً ، سائغاً للشاربين . ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ، إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون »[1] .

وتمضى الأيام ، وتأتى الحضارة الحديثة ، فتثبت ماقال به القرآن الكريم ، منذ أربعة عشر قرناً ، من أن عقل الإنسان ، هو معجزة الله الكبرى فيه ، فبهذا العقل استطاع الإنسان المعاصر — بالفعل — أن يصنع المعجزات ، فيقتحم الأرض والبحر والسماء ، ويصل إلى أجواز الفضاء ، ويدرس الكون ، ويقف على أسراره .

فهل العقل الإنسانى ، الذى صنع كل هذه المعجزات ، عقل حيوانى ، ولكنه أكثر تعقيداً ، كما يقول بذلك العلم الحديث ، أم أنه أكبر من ذلك بكثير ؟

وفى رأيى أنه أكبر من ذلك بكثير ، وأن العلم الحديث ، بكل أدواته ومعداته ، لا زال عاجزاً عن الوصول إلى حقيقة هذا العقل بعد .

وسينتصر العلم الحديث على هذا العجز ويتخطاه ، يوم يدع الفكرة الصهيونية القائلة (بحيوانية) الإنسان ، ويعامل الإنسان على أنه (إنسان) — ويومها ربما وصل إلى معجزات هذا العقل ، ووقف على بعض أسراره ، فإنه « رغم كثرة الأبحاث والدراسات التى عملت فى هذا الميدان ، فلا زالت هناك نواح غامضة ، لم يستطع العلم ، رغم تقدمه ، تعليلها تعليلا تاماً »[2] .

ويومها ، سيصل العلم الحديث حتماً ، إلى الصلة العضوية التى تربط بين

---

(١) قرآن كريم : النحل ــ ١٦ : ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) دكتورة رمزية الغريب : التعلم (مرجع سابق) ، ص ٥١ .

هذا العقل وبقية الكيان الإنسانى من جانب ، وبينه وبين إطاره الروحى ، من جانب آخر ، فتربط بذلك بينه وبين ... العقل الكونى العام .

وسيجد — فى النهاية — أن منجزاته فى هذا المجال ، ويتوقع لها أن تكون كثيرة كثيرة ، قد سبقه إليها القرآن الكريم . . منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان ، على نحو ما سنرى عند حديثنا عن (الذات الإنسانية) فى الفصل السادس ، و(الإنسان فى الإسلام) فى الفصل السابع .

ومن ثم ، فهذا العقل الإنسانى . . المعجز ، أكثر إعجازاً ، إذا وضع فى موضعه الصحيح ، كجزء من كيان إنسانى ، متصل بأجزاء أخرى من هذا الكيان ، يتفاعل معها ، وتتفاعل معه .

وسيكون هذا العقل الإنسانى .. المعجز ، أكثر إعجازاً ، حين يعرف قدره ، ويلزم حدوده ، فلا يغتر بما أوتى من إمكانيات ، وما صنع من معجزات ، ويتجرأ ويتبجح ، ويتطاول .. حتى على الله .

إنه — بطبيعته — طريق الإنسان إلى الله ، كما قرر القرآن الكريم ، وكما سنرى فيما بعد ، ولكنه — اليوم — يتخذ — كما اتخذ من قبل بالفعل — وسيلة من وسائل الصد عن سبيل الله .

والغرور عندما يركب فرداً ، إنما يورده موارد التهلكة .

والغرور عندما يركب العقل الإنسانى ، إنما يورد صاحبه موارد التهلكة أيضاً .

وهل أودى ببنى إسرائيل عبر تاريخهم الطويل ، سوى هذا العقل ، الذى قلبوا به الحق باطلا ، والباطل حقاً ، فاستحقوا لعنة الله أينما حلوا ،

ولم يجن مجتمع من المجتمعات خيراً من وراء إكرامهم ، وإنما وجد الخير كل الخير فى ملاحقتهم واضطهادهم »[١] .

وبهذا العقل الإسرائيلى ، صنع بنو إسرائيل إلههم ، وجعلوه إلهاً لهم دون غيرهم ، ومع ذلك كله ، فقد تمردوا عليه وأتعبوه ، حتى قال — فيما تقوله التوراة — لموسى : « رأيت هذا الشعب ، وإذا هو شعب صلب الرقبة . فالآن اتركنى ، ليحمى غضبى عليهم وأفنيهم »[٢] .

وأسفار التوراة مليئة بالأحداث ، التى حمى فيها غضب إله بنى إسرائيل عليهم ، فأذلهم ، ثم عفا عنهم . . بعد بكاء منهم له ، أو قربات وذبائح ، تقدموا بها إليه .

وبهذا العقل المغرور ذاته ، تصدوا للمسيح عيسى بن مريم ، محاولين إحراجه ، ولكنه — عليه السلام — كان لبقاً ، فلم ينقض الناموس ، الذى أعلن أنه جاء ليكمله ، لا لينقضه[٣] ، ولم يصطدم بسلطة الدولة الرومانية ، التى أرادوه أن يصطدم بها .

وبهذا العقل المغرور ذاته ، استطاعوا أن يتسللوا إلى صلب الدين المسيحى ، فيحرفوه ، لينسفوه من الداخل ، بعد أن فشلوا فى تدميره من الخارج[٤] .

---

(١) لنا الى بنى اسرائيل عود ، فى كتاب نخصصه لهم من كتب هذه السلسلة باذن الله .

(٢) العهد القديم : سفر الخروج ـ ٢ : الاصحاح الثانى والثلاثون : ٩ ، ١٠ .

(٣) العهد الجديد : انجيل متى ـ ١ : الاصحاح الخامس : ١٧ .

(٤) دكتور عبد الغنى عبود : الله والانسان المعاصر (مرجع سابق) ، ص ٨٩ ـ ٩٦ .

وبه — أيضاً — حاولوا مع رسالة الإسلام ، فلما فشلوا فى الإجهاز عليها ، حاولوا (التسلل) إليها من الداخل ، من خلال دس الحديث المكذوب ، ولكن علماء المسلمين كانوا أمهر منهم وأسرع حركة ، فقد تصدوا (للإسرائيليات) ، يطهرون منها الحديث الشريف ، والفكر الإسلامى كله .

وبدلا من أن يستعمل بنو إسرائيل هذا العقل ، فى الوصول إلى الحقيقة ومناصرتها ، استعملوه فى إبعاد الناس عن الحقيقة ، ليظلوا لهم ذيولا ، لأن بينهم وبين الحقيقة خصومة ، منذ خلقوا .

ومن خلال بنى إسرائيل ، تسلل الغرور إلى (العقل العلمى) فى غرب أوربا ، فبدأ هذا العقل يتجرأ على الله ، وينكر وجوده ، لأن الكون — فى نظره — منتظم ، بصورة لا تستدعى وجود هذا الإله .

وإذا كان هناك إله ، فأين هو ؟

لقد وصلوا — من خلال العقل — وبوسائل العلم — إلى كل مجهول فى هذا الكون :

وصلوا إلى الميكروبات ، وفجروا الذرة ، واقتحموا مجاهل الفضاء ، ومكنون الأرض ، وأعماق المحيطات . . ولو كان الله — فى نظرهم — موجوداً لرأوه ! !

ونسوا أن للعقل البشرى حدوداً ، رغم إعجازه .

وأن هذا العقل البشرى معجز ، طالما عرف حدوده ، ولم يتعدها .

وأن العقل يوم يتعدى حدوده ، إنما يدمر نفسه بنفسه .

وهذه هي آفة العقل البشري المعجز — في نظري — اليوم ، لا في قضية الألوهية وحدها ، بل في كل قضية لا يستطيع أن يتحسسها ، بنفسه ، أو من خلال آلة من الآلات التي اخترعها .

ومن أجل هذه الآفة ، أنكر الله ، وأنكر الروح ، وأنكر البعث ، وأنكر الملائكة ، وأنكر الشياطين ، وأنكر الحق ، وأنكر وأنكر .. فارتد إلى عقل طفل .

وإنها لمأساة : أن يمسك بعجلة القيادة في حضارتنا الراهنة ، أناس لهم عقول أطفال .

والتاريخ يحدثنا ، بأن الحضارات العشرين السابقة لحضارتنا الراهنة ، ما أودى بها إلا غرور العقل ، الذي حول الكبار إلى صغار ، ثم دفعهم الغرور .. إلى الفناء .

الفصل الرابع

الانسان . . . اجتماعياً

تقـــديم :

بنفس المنهج الفاسد ، الذى اقتحم به علم النفس ، أعماق الإنسان — نفسه وعقله ، اقتحم العلاقة بين هذا الإنسان ، وبين المجتمع الذى يعيش فيه .

فمثلما كان الإنسان (حيواناً) غريزياً ، فى علم نفس النمو ، وفى علم النفس التحليلى ، وكما كان (حيواناً) عاقلا فى علم النفس التعليمى ، فهو (حيوان) اجتماعى — أيضاً — فى علم النفس الاجتماعى .

ومعنى (حيوانية) الإنسان الاجتماعية ، أنه يسير فى حياته الاجتماعية ، على أساس يكفل له إشباع غرائزه الجسدية ، ومن ثم يضطر إلى أن (ينافق) مجتمعه ، لأنه إن وقف ضد هذا المجتمع ، فسيهدد جسدياً ، وبالتالى يهدد (الحيوان) الكامن فى أعماقه .

ولم يقل علم النفس الاجتماعى بهذا النفاق بطبيعة الحال ، وإنما عبر عنه تعبيرات أخرى ، كالتوافق والتلاؤم والإحساس بالانتماء .. وغيرها .

وعندما نزيل (الصفة) البشرية من فوق هذه الصفات ، فإن (تجريدها) لا بد أن يكون هو (النفاق) .

الانسان والثقافة :

لكل إنسان — فرد — شخصيته المتميزة المستقلة كما سبق ، ويعبر علماء الأنثروبولوجى وعلماء النفس الاجتماعى وعلماء التربية ، عن هـذه

الشخصية ، (بالثقافة) ، فيقولون : إن لكل فرد ثقافته ، أى شخصيته ، ويقولون — فيما يقولون — إن الإنسان حيوان ذو ثقافة ، أى ذو شخصية متميزة .

ولكل مجتمع (شخصيته القومية) المستقلة ، التى تميزه عن المجتمعات الأخرى ، ويعبر علماء التربية والاجتماع عن هذه الشخصية (بالثقافة) أيضاً ، فيقولون : إن لكل مجتمع ثقافته ، أى شخصيته القومية .

« فالثقافة بالنسبة للفرد مرادف (للشخصية) ، إذ لكل فرد شخصيته ، التى يتميز بها ، عن غيره من الناس .

والثقافة بالنسبة للمجتمع ، مرادف (للشخصية القومية) ، التى يتميز بها هذا المجتمع ، عن غيره من المجتمعات ، فنجد سمات عامة للانجليز ، تختلف عن سمات الفرنسيين والأمريكيين والروس والصينيين والمصريين والعراقيين ، وغيرهم وغيرهم »[1] .

و « (ثقافة المجتمع) ، كما تستخدم الآن فى العلوم الاجتماعية » ، « تعنى طريقة الحياة الكلية للمجتمع ، وقد تتناول أسلوب تناول الطعام ، أو ارتداء الملابس ، أو استخدام اللغة ، أو تبادل الحب ، أو الزواج ، أو دفن الموتى ، أو لعب كرة القدم . وقد تشمل أيضاً قراءة الأدب ، أو سماع الموسيقى ، أو مشاهدة أعمال الرسامين والمثالين ، أو الأنواع الأخرى من النشاط ، التى يعتقد أنها تمثل الثقافة بمعناها الضيق »[2] .

---

(١) دكتور عبد الغنى النورى ، ودكتور عبد الغنى عبود : نحو فلسفة عربية للتربية — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٦ ، ص ٥٤ .

(٢) أ. ك. أوتاواى : التربية والمجتمع — ترجمة دكتور وهيب ابراهيم سمعان وآخرين — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٦٠ ، ص ١٢، ١٣ .

ولا يستطيع العلم أن يجزم بطبيعة الحال ، ما إذا كانت الثقافة العامة للمجتمع ، هى محصلة ثقافات أبنائه ، أم أنها إطار عام ، ينتظم هذه الشخصيات ، ويطبعها بطابعه .

وحول هذه القضية بالذات ، سوف يدور حديثنا فى بقية هذا الفصل .

موقف الانسان من الثقافة :

يرى علماء الأنثروبولوجى Anthropology أن الإنسان مجرد « حيوان ، أو كيان Organism ، رغم أنه — أيضاً — مخلوق متحضر ، له تاريخ ، وقيم اجتماعية »(١) .

وهو مجرد حيوان ، لأن ثقافة المجتمع — فى نظر علماء الأنثروبولوجى — « تسمو » « فوق مستوى الفرد ، فى قدرتها على تخليد نفسها ، وعلى البقاء بعد انقراض أى من الشخصيات التى تسهم فيها ، أو جميع الشخصيات التى سبق أن أسهمت فيها » . « والثقافة قادرة على ذلك ، بسبب دورها المسيطر فى تكوين شخصيات الأفراد الجدد ، الذين وقعوا تحت تأثيرها ، لأنهم ولدوا فى مجتمع معين . ويولد الطفل دون شخصية ، وفى مراحل نموه ، تتكون فيه الشخصية ، بسبب تفاعل إمكاناته الفطرية ، مع محيطه الخارجى »(٢) .

فالإنسان — فى رأى علماء الأنثروبولوجى — مجرد متلق للثقافة ، أو هو مجرد (قابل) للثقافة ، وليس (فاعلا) فيها ، بلغة التأثير والتأثر العلمية .

---

(1) KROEBER, A L. : Anthropology (Race, Lang uage, Culture, Psychology., Prehistory); Revised Edition, Harcourt, Brace and Company, Inc , 1948, p. 1.

(٢) رالف لنتون (مرجع سابق) ، ص ٣٨٥ .

ويبنى علماء الأنثروبولوجى وجهة نظرهم هذه، على أساس التكوين البيولوجى للإنسان، كما وضحناه فى الفصل الأول، وكما تناولناه فى مناسبات عدة، فى الفصول التالية. فالإنسان — كما رأيناه — جهاز عصبى معقد، بالغ التعقيد، ولا يمكن فهم الأساس البيولوجى للإنسان، بمعزل عن هذا الجهاز العصبى المعقد. وفى نظرهم أن «الحواس الجسمية، مصدر هام من مصادر المعرفة، فالمرئيات والأصوات والأذواق والروائح، وإحساسات اللمس، متضمنة فى كثير من، إن لم يكن فى، كل ما يعرفه الإنسان. فأعضاء الحس، هى المسالك الأولية، التى عن طريقها ينتسب الفرد الإنسانى للعالم المحيط به. والخلايا العصبية المستقبلة تتأثر بشكل من أشكال الطاقة، كالضوء أو الحرارة أو الصوت، وينتقل التأثير العصبى إلى مركز المخ، الذى يناسبه. ومثل هذه الإشارات، تساعد الفرد على أن يسلك، حتى يدخل فى اعتباره الظروف المادية الواقعية. ويبدو أن التعلم لن يحدث دون المعلومات الحسية. والطفل بدون الإمكانيات الحسية، لا يمكن أن ينمو. فمن خلال الحواس، يعرف الفرد بناء العالم المحيط به، الذى يجب أن يعيش فيه، والذى يجب أن يتكيف معه إلى حد ما. فالحواس على هذا الأساس مرشد أساسى نحو الحقيقة»(١).

فالإنسان — من خلال جهازه العصبى — مضطر إلى أن يتعامل مع العالم الخارجى، وأن يتكيف له، مؤثراً فيه — إن استطاع — ومتأثراً به ... حتى يعيش.

ويرى دانيل كاتز، أنه بينما «نريد بوجه عام، أن يعترف بنا المجتمع،

---

(١) فيليب هـ . فينكس : فلسفة التربية — ترجمة وتقديم الدكتور محمد لبيب النجيحى — دار النهضة العربية — ١٩٦٥، ص ٤٧٨ .

ويكافئنا ، فإننا نتأثر بقوة ، بالناس الذين يحيطون بنا مباشرة ، وبالجماعات المتجانسة ، والتي نشترك في عضويتها ، سواء بصورة رسمية أو غير رسمية »، وأنه « كثيراً ما تقمع أنانية الفرد ، في سبيل التطابق مع معايير الجماعة » ، وأن « قدراً كبيراً من المعايير الاجتماعية لثقافتنا ، اكتسبناها عن طريق العضوية ، رسمية كانت أوغير رسمية ، في جماعات كثيرة من مجتمعنا »(١) .

وكأن الإنسان — في نظرهؤلاء العلماء — مجرد وعاء ، يصب فيه المجتمع، ما أراد ويريد .

وهي وجهة نظرواسعة ، يكاد كل علماءالنفس الاجتماعي وعلماء الاجتماع ، يأخذون بها ، ويبنون عليها نظريات ، تتشعب ، ثم تعود لتتفق ، حول هذا الإطار .

وتنبني التربية الحديثة على وجهة النظر هذه ، فيتحدد هدف التربية في « تمكين الفرد من أن يكون أكثر اتصالا بالحياة الثقافية ، للمجتمع الذى يعيش فيه »(٢) ، وذلك لأن التربية — في نظرفلاسفة التربية ، بناء على وجهة النظر هذه — « هي عملية الارتباط بالثقافة ، والتلاؤم معها »(٣) .

---

(١) دانيل كاتز : « أثر الجماعة في الاتجاهات والسلوك الاجتماعي »— ترجمة الدكتور مختار حمزة — الفصل الثامن من : **ميادين علم النفس ، النظرية والتطبيقية** — باشراف ج. ب. جيلفورد — والترجمة باشراف الدكتور يوسف مراد — المجلد الأول — الميادين النظرية — دار المعارف بمصر — ١٩٥٥ ، ص ٣٣٣ — ٣٣٥ .

(2) BUTTS, R. FREEMAN : A Cultural History of Western Educatior, Its Social and Intellectual Fundatians; Second Edition, Mc Graw-Hill Company, New-York, 1955, p. 15.

(3) READ, MARGARET : Education and Social Change in Tropical Areas; Thomas Nelson and Sons Ltd., Edinburgh, 1956, p. 96.

التكيف النفسى :

وهكذا يكون الإنسان — فى نظر علم النفس الاجتماعى — مجرد مادة أولية خام ، يترك عليها المجتمع (بصمته) ، بشكل واضح .

وتبلغ هذه (الجماعية) ذروتها ، عند الفلاسفة المثاليين الألمان[(١)] ، فالفيلسوف « المربى الألمانى هربارت ، الذى عاش بين ١٧٧٦ — ١٨٤١ ، هو أبرز من قال بنظرية التكوين العقلى ، بالتأثير الخارجى (لا الداخلى) هذه »[(٢)] ، والفيلسوف هيجل (١٧٧٠ — ١٨٣١) « يرى أن الكون خاضع لنظام عام ، وله مثل أعلى روحى ، وأن البشرية تتقدم وترتقى نحو هذا الهدف الأعلى ، بواسطة المنظمات الاجتماعية ، وبواسطة اتحاد الفرد واندماجه فى هذه المنظمات »[(٣)] ، وأن الدولة — التى تمثل المجتمع — نتيجة لذلك — « (إله يمشى فى الأرض) »[(٤)] .

---

(١) الفلسفة المثالية ، هى تلك الفلسفة التى لا ترى للأفراد وجودا خارج وجود الدولة ، ومن ثم تعطى الدولة أهمية كبرى ، وسلطات مطلقة ، ولو على حساب حريات الأفراد . وكان من أبرز من أوضحوا هذه الفلسفة ، الفيلسوف الاغريقى أفلاطون (٤٢٧ — ٤٣٨ق . م) فى القديم ، ثم هوبز وهارنجتن فى انجلترا ، وكانت وهربارت وفيخته وهيجل فى المانيا ، فى العصور الحديثة .

وقد تأثرت الماركسية بفلسفة هيجل تأثرا واضحا — وان عارضتها أحيانا .

(٢) الدكتور محمد فاضل الجمالى : تربية الانسان الجديد (محاضرات فى مبادىء التربية ، ألقيت فى الجامعة التونسية) — الشركة التونسية للتوزيع — ١٩٦٧ ، ص ١٨١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٧٤ .

(٤) هـ . أ . ل . فشر : تاريخ أوربا فى العصر الحديث (١٧٨٩ — ١٩٥٠) — تعريب أحمد نجيب هاشم ، ووديع الضبع — (جمعية التاريخ الحديث) — دار المعارف بمصر — ١٩٥٨ ، ص ٢٠٣ .

غير أن هذه (الجماعية) مهما بلغت، فإنها لا تبلغ ما بلغته فى الشيوعية، كما بلورها كارل ماركس (١٨١٨ — ١٨٨٣)، فعند «كارل ماركس»، لايكاد الفرد يتميز بكيان متفرد» . «وعليه، فمعظم الدوافع، التى تبدو من الزاوية السيكولوجية، عللا للمسالك، إنما هى فى الحقيقة عديمة القيمة، لأنها ترجع هى نفسها إلى الدوافع الحقيقية، التى هى مصالح الطبقة الاجتماعية»[١].

فمسايرة الفرد لمجتمعه، على هذا الأساس، هى السبيل إلى حصوله على الأمن الاجتماعى، والأمن البيولوجى أيضاً .

و «جوهر المسايرة»، على حد تعبير الدكتور سيد أحمد عثمان، «هو الصراع بين القوى الداخلية عند الفرد، وضغوط الجماعة»[٢] .

وثمة نماذج — أو أنماط — فى رأيه — للمسايرة، هى :

«١ — المسايرة المفرطة، أو الإمعية Overcon oformity : وفى هذا النوع من المسايرة، يسلم الفرد ذاته كلية للجماعة، ولا يكاد يمارس، أو يريد أن يمارس، ما يخالفها، أدنى مخالفة» .

«٢ — المسايرة Conformity»، حيث «يستجيب الفرد لضغوط الجماعة، بالتحرك فى اتجاه المشابهة لهـا، دون تطرف أو مغالاة، كما فى المسايرة المفرطة» .

---

(١) دكتور صلاح مخيمر، وعبده ميخائيل رزق : سيكولوجية الشخصية (مرجع سابق)، ص ١٧٢ .

(٢) دكتور سيد أحمد عثمان : علم النفس الاجتماعى التربوى — الجزء الثانى — المسايرة والمغايرة — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م، ص ٦ .

« ٣ — المسايرة الظاهرية أو النفعية ـ التقية Expedient Conformity » .

« ٤ — اللامسايرة Non conformity » .

« ٥ — المضادة Counterconformity or anticonformity » .

« ٦ — الاستقلال Independence » .

« ٧ — الاغتراب Alienation »[1] .

ويقودنا ذلك — أردنا أم لم نرد — إلى موضوع ، يعتبره علماء الصحة النفسية ، أهم لكيان الإنسان ، من تكوينه البيولوجى ذاته ، وهو موضوع (الصحة النفسية) ، أو (التكيف النفسى) .

و (الصحة النفسية) هى — باختصار — « تكيف الكائن الحى للبيئة المحيطة به » ، أو « لبيئته المادية والاجتماعية »[2] ، وهى « شبيهة فى ذلك بالصحة الجسمية »[3] .

وقد يتحمل الإنسان آلام الجوع ، أو آلام المرض ، تدهم جزءاً معيناً من أجزاء جسمه ، ولكنه أمام أمراض النفس ، يهتز كيانه كله ، فيدفعه إلى (القلق) ، مما قد يؤدى به — فى النهاية — إلى الانتحار .

وتتركز أسباب المرض النفسى كلها ، فى عدم القدرة على (التكيف) ، مع البيئة ، التى يعيش فيها الإنسان .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦ — ٩ .

(٢) الدكتور عبد العزيز القوصى : أسس الصحة النفسية ـ الطبعة الرابعة ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م ، ص ٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٠ .

ومن ثم يكون عدم (مسايرة) الإنسان لمجتمعه ، مؤدياً به إلى (القلق) ، بسبب عدم قدرته على التكيف مع ذلك المجتمع .

وحجم هذا (القلق) يختلف من إنسان إلى إنسان ، حسب درجة عدم المسايرة هذه ، وحسب قدرة الإنسان ذاته على الصمود .

وهنا يأتى دور (القوة الروحية) ، التى أغفلها علم النفس الحديث ، والتى سنراها فى الفصل التالى ، وسنتحدث عن أهميتها فى الإسلام — فى الفصل الأخير من الكتاب .

دوافع السلوك فى علم النفس الاجتماعى :

رأينا ، عند حديثنا عن دوافع السلوك فى الفصل الثانى[١] ، أن علماء النفس يقسمون دوافع السلوك ، إلى نوعين أساسيين من الدوافع ، أولها هو الدوافع الأولية **Primary Drives** ، والثانى هو الدوافع الثانوية **Secondary Drives** .

وهم يقصدون بالدوافع الأولية ، تلك الدوافع الغريزية ، أو البيولوجية ، التى لا فكاك للإنسان منها ولا مهرب ، ما لم يشبعها ، لأنها تتصل بالجهاز العصبى للإنسان ، أو « بالعقل الإنسانى »[٢] .

أما الدوافع الثانوية ، فيمكن أن توصف بأنها دوافع ذات أساس بيولوجى وغريزى أيضاً ، إلا أنها تتعدى كيان الإنسان الداخلى ، إلى المجتمع ، الذى يشبع هذه الدوافع فيه ومن خلاله ، حيث تتصل (بكيفية) إشباع الغرائز .

---

(١) ارجع الى ص ٤٨ ، ٤٩ من الكتاب .

(2) Mc DOUGALL, WILLIAM : An Introduction to Social Psychology; University of Paperbacks, Methuen, London, 1960, p. 17.

وكيفية إشباع الغرائز ، أمر يتصل بالمجتمع ، وتنظيمه لهذه الكيفية .

ومن ثم فالدوافع الثانوية — أساساً — دوافع اجتماعية بالدرجة الأولى .

وهكذا يتوزع الإنسان — فى علم النفس — بين مدرستين أساساً ، ومدارس علم النفس الأخرى ، تكاد أن تكون مدارس فرعية ، بجانب هاتين المدرستين الأساسيتين ، حيث « انقسم الباحثون فى علم النفس إلى فريقين : فريق بحث مظاهر السلوك من زاوية الوراثة والفطرة والتكوين البيولوجى ، وفريق آخر بحث مظاهر السلوك من زاوية البيئة ، وأثرها فى الكائن الحى » .

« فالذين يتخذون الجماعة أساساً للدراسة العلمية ، يميلون إلى التشيع المدركات الجماعية ، مثل العقل الجماعى ، وشخصية الجماعة ، والذين يتخذون الفرد وحده أساساً للدراسة العلمية ، يميلون إلى إنكار العقل الجماعى ، وإنكار شخصية الجماعة »[1] .

أما مدارس علم النفس الأخرى ، كمدرسة التحليل النفسى ، أو مدرسة علم النفس الفردى ، أو مدرسة علم النفس التحليلى ، أو المدرسة السلوكية الميكانيكية ، أو المدرسة السلوكية الديناميكية ، أو مدرسة تحليل العوامل ، أو مدرسة الجشطلت[2] — فهى مدارس يمكن أن تندرج — بصورة أو بأخرى — تحت إحدى هاتين المدرستين ، أو تحتهما معاً .

---

(١) الدكتور فؤاد البهى السيد : علم النفس الاجتماعى — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٥٤ ، ص ١١٧ .

(٢) الدكتور يوسف مراد : مبادىء علم النفس العام — من (منشورات جماعة علم النفس التكاملى) — الطبعة الرابعة — دار المعارف بمصر — ١٩٦٢ ، ص ٨ ، ٩ .

ويؤدى (التكيف) مع الجماعة ، ومسايرتها — كما سبق — إلى (الصحة النفسية) ، فى نظر علماء النفس الاجتماعى ، ويؤدى (عدم التكيف) معها ، إلى الشذوذ النفسى ، أو الشذوذ العقلى .

وليستطيع الإنسان أن (يتكيف) مع بيئته ، يقول علماء النفس ، إن الإنسان تسيره — اجتماعياً — مجموعة من الحاجات ، أو دوافع السلوك ، منها الحاجة إلى الأمن ، والحاجة إلى المحبة ، والحاجة إلى التقدير ، والحاجة إلى النجاح ، والحاجة إلى الحرية ، والحاجة إلى الانتماء (أو الحاجة إلى الجماعة)[1] ، ويضيف إليها كيرتس الحاجة إلى التجاوب ، والحاجة إلى الاعتراف[2] ، أى أن يحس الفرد بأنه معترف به ، بين أفراد الجماعة التى يعيش فيها .

الشذوذ النفسى ، والشذوذ العقلى :

و « يختلف الباحثون فى فهمهم لكلمة (شاذ) ، وتفسيرهم لمدلول (الشذوذ) »[3] ، ويعود هذا الاختلاف إلى اختلاف المنظور الذى ينظر به كل باحث إلى الشذوذ والشاذ — ففرق بين رجل الدين ورجل الأخلاق ، وعالم النفس ، وغيرهم ، فى النظرة إليهما .

ففلسفة كل علم من العلوم ، هى التى تحدد السوى والشاذ .

ولكن علماء النفس الاجتماعى ، يتفقون على أن للشذوذ معنى (اجتماعياً)، بمعنى أن الشاذ ، هو الخارج على المألوف فى المجتمع .

---

(١) الدكتور ابراهيم وجيه محمود (مرجع سابق) ، ص ٨٥ — ٩١ .
(2) CURTIS, JACK H; Op. Cit., pp. 232, 233.
(٣) دكتور مصطفى فهمى : الشذوذ النفسى — مكتبة مصر — ١٩٥٧ ، ص ٣ .

ومن ثم يختلف (الشذوذ) — فى نظرهم — من مجتمع إلى آخر ، لأن « ما يعد لائقاً ومألوفاً فى مجتمع ما ، ينظر إليه على أنه خروج على المألوف فى مجتمع آخر — ذلك أن فكرة المألوف تتغير بتغير البيئات والحضارات والثقافات والديانات »[١] .

ويقسم علماء النفس — على هذا الأساس — الشذوذ إلى نوعين :

(ا) شذوذ نفسى .

(ب) شذوذ عقلى .

ومرجع الشذوذ النفسى — فى نظرهم — هو سوء التكيف الاجتماعى ، حيث أن « دوافع الإنسان تحركه ، فيسلك سلوكا معيناً فى البيئة التى يعيش فيها ، وهو يستهدف من هذا السلوك الحصول على الملاءمة ، التى تحقق له الشعور بالأمن والارتياح . إلا أنه يحدث أثناء محاولة الإنسان للتكيف ، أن ينجح ، أو يفشل أحياناً أخرى . وفى حالة الفشل ، ينشأ عدم التوافق ، وهو نتيجة طبيعية لردود الأفعال ، الناتجة عن اصطدام الفرد بالبيئة الخارجية ، وما تحتويه من عقبات وصعاب ، وكف ومنع وإحباط »[٢] .

ومن الأمراض النفسية ، التى تنتج عن سوء التكيف هذا — القلق المرضى ، والهستيريا ، والشعور بالضعف والوهن والإجهاد بشكل مرضى ، والأعمال القسرية والوساوس ، واللجلجة فى الكلام ، والسلوك السيكوباتى[٣] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٥١ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٥٣ .

أما الشذوذ العقلى — فى نظرهم — فهو « يجعل صاحبه يعانى اختلالا شاملا ، واضطراباً فى شخصيته ، يؤدى به إلى اختلال بعض وسائل التكيف والتوافق الاجتماعى ، وبالإضافة إلى ذلك ، فإنه يجهل الأسباب الكامنة وراء شذوذه ، وذلك لأنه لا تكون لديه بصيرة بمشكلاته »[١] .

وهم يقسمون الأمراض العقلية عموماً إلى نوعين :

أمراض عضوية ، وأمراض غير عضوية .

وتعود الأمراض العضوية — فى نظرهم — إلى « إصابة الجهاز العصبى المركزى (المخ) بالجرح والتلف ، نتيجة لإصابة معينة ، أو الضمور بسبب الشيخوخة ، المصحوبة بانهيار الوظائف الجسمية ، أو التعرض لبعض التغيرات النيورولوجية ، بسبب التسمم ، نتيجة عوامل خارجية ، كتعاطى المخدرات ، أو نتيجة عوامل داخلية ، كإفرازات الغدد »[٢] .

أما الأمراض العقلية غير العضوية ، فإنهم يختلفون « فى تفسير العلة الكامنة وراء أمراض المجموعة الثانية من الأمراض العقلية ، إلا أنهم اتفقوا على أن ما ذكر من أسباب ، لا يمكن اعتباره متصلا بالناحية العضوية ، ذلك لأن الاضطراب — كما بينوا — يرجع إلى خلل فى الوظائف العقلية ، دون أن يكون لذلك سبب عضوى واضح .

وتشمل المجموعة الثانية من الأمراض ما يلى :

١ — جنون المراهقة .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥ ، ١٦ .

٢ — جنون العظمة وجنون الاضطهاد .

٣ — الهوس والاكتئاب »[1] .

وهكذا يكون كل الناس — فى نظر علماء النفس — شواذ نفسياً ، بشكل أو بآخر .

ويكون كل الناس — فى نظر هؤلاء العلماء أيضاً — مجانين ، والجنون — كما يقولون — فنون .

ومرجع هذا الشذوذ والجنون ، هو (المنظور) الذى نظر به هؤلاء العلماء إلى الإنسان ، فقد نظر إليه علماء النفس الاجتماعى ، كما نظر إليه كل علماء النفس الآخرون ، على أنه حيوان اجتماعى، وظيفته أن يسترضى المجتمع الذى يعيش فيه ، حتى يتمكن من (التكيف) معه ، وإشباع حاجاته منه .

ويحمل المصلحون والثوار ، من هذا الشذوذ والجنون ، على نصيب الأسد بطبيعة الحال ، رغم أنهم هم الذين يحولون المجتمع كله ، من حال إلى حال .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

الفصل الخامس

الإنسان . . . روحيا

تقـــديم :

رأينا — فى الكتاب الأول من السلسلة [١] — أن « الدين مطلب لغريزة أصيلة من غرائز الإنسان ، لا يسع المرء أن يتجاهلها » [٢] ، وأن الإنسان « استشعر بغريزته وجود قوة أعلى ، هى التى خلقت العالم ، وهى التى تقوده إلى مصير خفى » [٣] ، وأنه — نتيجة لذلك — كانت « فى الإنسان (حاسة) روحية » [٤] ، وكانت « نزعة الإيمان بالله قديمة فى الإنسان منذ خلقه ، وطبيعية فى نفسه كطبيعة حياته » [٥] ، وكانت « جذور هذه الغريزة الإنسانية ، هى إحساس البشر بحاجتهم إلى الرب الخالق ، ففكرة الله خالق ، وأنا عبده ، منقوشة فى اللاشعور الإنسانى » [٦] .

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : العقيـدة الاسلاميـة والأيديولوجيات المعاصرة (مرجع سابق) ، ص ٤٤ — ٦٩ .

(٢) الشيخ أحمـد حسن الباقورى : « الدين أصـل فى الفطـرة الانسانية » — **منار الاسلام** — تصدرها وزارة الشئون الاسلامية والأوقاف فى دولة الامارات العربيـة المتحـدة — العـدد الأول — محرم ١٣٩٦ هـ يناير ١٩٧٦ م ، ص ٢٩ .

(٣) الدكتور أحمـد عروة : الاسـلام فى مفترق الطرق — نقله عن الفرنسية : الدكتور عثمان أمين — دار الشروق — ١٩٧٥ ، ص ٣٧ .

(٤) عبد الكريم الخطيب : الله ذاتا وموضوعا ، قضية الألوهية ... بين الفلسـفة والدين — الطبعـة الثانية — دار الفكر العربى — ١٩٧١ ، ص ٩٠ .

(٥) عبد الرزاق نوفل : الله ، والعلم الحديث — الناشرون العرب — دار الشعب — ١٩٧١ ، ص ١٥ ، ١٦ .

(٦) وحيد الدين خان : الاسلام يتحدى ، مدخل علمى الى الايمـان (مرجع سابق) ، ص ١٥٤ .

كما رأينا — فى الكتاب الثانى من السلسلة — أن هذا الإحساس الدينى أو العقائدى ، إنما هو « إحساس طبيعى ، يحس به الإنسان ، من حيث هو إنسان .

وموطن هذا الإحساس فى الإنسان ، هو لا شعوره فى الغالب » .

« وما دام لا شعور الإنسان هو موطن هذا الإحساس ، فإنه إحساس يسيطر على عقله وفكره ، ويسيطر على جوارحه ، ويسيطر على كيانه كله ، أراد أم لم يرد ، عرف سبب هذه السيطرة أم لم يعرفها ، ووصل إليها بعقله أم لم يصل »[1] .

فاللاشعور — فى نظرى — مستقر أسمى الغرائزالإنسانية ، وهى غريزة الاتصال بالله ، أو غريزة التدين ، وليس مستودعاً لأكثر هذه الغرائز انحطاطاً ، كما يقول بذلك فرويد والفرويديون .

وقد بدأ علم الروح ، كفرع متصل بعلم النفس أو منفصل عنه ، يفرض نفسه على جملة الدراسات الحديثة ، بعد أن صارت الروح (حقيقة) واقعة ، لا جدال فيها ، وصارت موضوعاً لبحث الباحثين ، ودراسات العلماء ، وعرضة للقياس ،من خلال الأدوات والأجهزة .. العصرية[2] .

ورغم أن هذه الدراسات (الروحية) الحديثة ، تؤيد وجهة نظر الأديان

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : الله والانسان المعاصر (مرجع سابق) ، ص ٢٠ .

(٢) لنا عود الى هذا الموضوع مرة ثانية ، فى نهاية هذا الفصل ، عند حديثنا عن (الروح فى نظر العلم الحديث) ، ولنا عود تفصيلى اليها فى كتابنا التالى من السلسلة ، عن (اليوم الآخر) .

السماوية ، وتضرب بما يدعيه العلم الحديث عرض الحائط ، وتؤيد — بالتالى — وجهة نظرنا فيما ندعيه فى هذا الفصل ، فإننا نصر على أن كل ما يصل إليه العلم الحديث ، متصلا بمسائل الروح ، لا يعد إلا قليلا لا يذكر ، من كثير كثير ، لا يمكن أن يصل إليه ، فى هذا المجال ، وهنا نسترجع قول الله سبحانه فى هذا الشأن :

— « ويسألونك عن الروح ، قل : الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »(١) .

فالاهتمام بالمسألة اهتمام قديم ، وهو ليس اهتماماً حديثاً ، فرضه التقدم العلمى الحديث .

وقد كان للقدماء فيها أبحاث ودراسات ، وشطحات فلسفية أو صوفية ، كل ما فعله العلم الحديث ، أنه طرحها على بساط البحث التجريبى ، تماماً كما كان لهم فى النفس (وعلم النفس) أبحاث ودراسات ، وشطحات فلسفية ، جاء العلم الحديث ، فأكد ما أكد منها بالتجربة ، وألغى ما ألغى .

وليس الاهتمام بمسألة الروح ، فى القديم أو الحديث ، بالأمر المستغرب ، ولكن الأمر المستغرب هو ألا يهتم بها أحد ، خاصة وأنها تتصل بالوجود الإنسانى كله ، فهى — لذلك — أكثر إلحاحاً من علم النفس ، بفروعه المختلفة ، ومن الطب أيضاً .

وما وصل إليه العلم الحديث بالتجربة ، وما وصل إليه الفكر القديم بالتصوف أو التفكير ، لا يزال — وسيظل — قليلا قليلا ، على حد التعبير القرآنى .

---

(١) قرآن كريم : الاسراء — ١٧ : ٨٥ .

الروح فى فكر القدماء :

تكاد فكرة الروح أن تكون واضحة فى كل الفكر القديم ، وإن اختلف (شكل) هذه الروح، من مكان إلى مكان، بطبيعة الحال ، بين تناسخ الأرواح فى الفكر الهندى القديم ، مثلا ، وبين عودة هذه الروح إلى جسدها بعد فترة ، طالت أو قصرت ، فى الفكرى المصرى القديم .

كان الهنود يعتقدون أن الروح — بمجرد مغادرتها جسدها — تنتقل إلى جسد آخر حى[1] ، ومن ثم كان إحراق جسد الميت ، ولا يزال ، عند الهنود .

ويرى الدكتور رءوف عبيد ، أن الديانة الهندية تعتبر « أقدم الديانات فى العالم أجمع » ، و « هى الديانة الفيدية ، وهى الشكل الفطرى الأول للدين الهندوسى ، المأخوذ عن كتب الإله (فيدا Vedas) الأربعة ، المكتوبة باللغة السنسكريتية ، والمنسوبة إلى وحى نزل من السماء على براها . وهذه الكتب هى ساما ورج وياجور وأثارفا . وتشرح الفيدات طبيعة براهما ، الإله الخالق ، الذى هو (أتما) ، أو النفس الخالدة فى الإنسان ، وتصور الكون كنسيج متطور من كيان الله ، كما تجعل امتزاج الفرد مع الله ، صورة لامتزاج النفس مع الروح » .

« وهى مؤسسة على عقيدة خلود الروح ، والعودة إلى التجسد ، أو رجعة الروح ، والإيمان بإله واحد ، وبالسماء التى تصعد إليها الأرواح الصالحة ، فيتلقاها (ياما) ، الذى يرفعها إلى الجنة ، حيث تنعم بكل اللذائذ الأرضية ، التى تكون قد اكتملت وأصبحت أبدية » .

---

(١) دكتور سعد مرسى أحمد ، ودكتور سعيد اسماعيل على : تاريخ التربية والتعليم — عالم الكتب — ١٩٧٢ ، ص ٦٠ .

« ويعتبر مذهب اليوجا الهندى بوجه خاص ، من المذاهب الشرقية الهامة ، فى الفهم العميق للروح » . « والإيمان بالروح وبالخلود ، يبلغ ذروته عند أتباع هذا المذهب بوجه خاص ، بما يستتبعه الإيمان من وجوب اتباع أنظمة صارمة ، من الزهد والتقشف وضبط النفس ، للوصول إلى المواهب الروحية القوية »(١) .

وكان المصريون يعتقدون أن الروح تغادر جسدها لفترة ، وأنها سرعان ما تعود إليه ، ومن ثم كان اهتمامهم بإقامة القبور والأهرامات ، ووضعهم ألواناً من الطعام والشراب والحلى ، بجوار الجسد ، حتى يستخدمها الميت ، بمجرد عودة الحياة إليه ، كما كانوا يثقبون ثقباً فى القبر ، تعود منه الروح ، حين تعود . وأكثر من ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن الآلهة التى عبدوها ، حيوانات كانت أو بشراً — « قد حلت فيها أرواح الآلهة التى كان عليها أن تسكن جسداً ، تتجسد فيه ، عند هبوطها إلى الأرض »(٢) .

ويرى الشهيد سيد قطب ، أن فكرة خلود الروح ، عميقة فى الفكر الإنسانى ، منذ آدم ، فإن « شخصية آدم فى قصص القرآن ، لنموذج (للإنسان) ، بكل مقوماته وخصائصه . ومن أظهر تلك المقومات والخصائص ، ذلك الضعف البشرى الأكبر ، الذى يجمع كل نواحى الضعف الأخرى فيها ، الضعف أمام الرغبة فى الخلود .

---

(١) الدكتور رءوف عبيد : مطول الانسان روح لا جسد (الخلود — العقل — الاعتقاد ، فى ضوء العلم الحديث) — الجزء الأول — الطبعة الثالثة — دار الفكر العربى — ١٩٧١ ، ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٢) دكتور سعد مرسى أحمد ، ودكتور سعيد اسماعيل على (المرجع الأسبق) ، ص ٧٧ .

وقد لمس إبليس موضع الضعف هذا ، فاستجاب له آدم ، واستجابت له حواء : (قال : هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) . فالإنسان الفانى ، حريص على الخلود أبداً ، فلما لم ينله كما مناه الشيطان ، ظل وسيظل يحاوله بمختلف الطرق . بالنسل ، وبالذكر ، وبالخيال . فإن لم ينفعه هذا كله ، نفعه الدين ، الذى يضمن له البعث مرة أخرى ، ويضمن له نوعاً من الخلود أيضاً »[1] .

فهى (الفطرة) الإنسانية ، تأبى انتهاء الحياة بمجرد الموت .

ولو أن حياة الإنسان كانت تنتهى بالموت ، كما تنتهى حياة الحيوانات والطيور والهوام ، « فما أبشعها من مأساة تدعو إلى القنوط ، وتخنق فى الأحياء منا إرادة الحياة !

ومن قديم ، حاولت البشرية ، قبل عصر الأديان ، أن تقاوم فكرة العدم ، وكأنها أدركت بفطرتها أن كل مغريات الوجود ، لا تكفى لحماية الإنسان من رفض حياة ، تنتهى حتماً بهذا المصير الرهيب .

ولعلها فى عصورها البدائية ، كانت مدفوعة إلى هذه المقاومة بغريزة البقاء ، أو محكومة بالسنن الكونية ، التى تريد لهذه الحياة أن تستمر » .

« وكانت عقيدة البعث فى الديانة المصرية ، القديمة محاولة مستبسلة ، لمقاومة فكرة العدم بعد الموت ، وهذه العقيدة ، هى التى هيأت لإنسان وادى النيل ، قدرته المبدعة ، على بناء الحضارة البشرية الأولى »[2] .

---

(١) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ــ دار الشروق ، ص ١٦٩ .

(٢) الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) : القرآن وقضايا الانسان ــ الطبعة الأولى ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ــ ١٩٧٢ ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

وعندما يساير الإنسان هذه (الفطرة) ، يتكامل الكيان الإنسانى ، وتكون حضارة ومدنية .

وقد ساير الفكر المصرى الفرعونى القديم هذه الفطرة ، فقد « كان التفكير (الفرعونى) » ، « أول تفكير جدى منظم فى شأن الروح »[1] ، فكانت الحضارة المصرية الفرعونية .. رائعة ورائدة .

كذلك وجدت (الروح) فى فكر فلاسفة الإغريق ، وعلى رأسهم أفلاطون (٤٢٧ — ٣٤٨ ق.م) ، وإن سميت (بالنفس) ، وهى — عند أفلاطون — موجودة « فى عالم العقل أو المعنى ، أو فى عالم الصحائح والمثل »، وهى « تعرف الحقائق بالتذكر ، ولا يحجبها عنها إلا حجاب الجسد ،وضلال الحس والشهوة ، وهى خالدة ، لا تموت ، لأنها جوهر بسيط ، لا يتحلل كما يتحلل الجسد المركب . ولكنها تلابس المادة فى حياتها الجسدية ، ثم تفارقها إلى عليين ، لتعيش بين الأرباب والملائكة والأرواح »[2] .

الروح فى المسيحية :

ورث الرومان الإغريق ، فى العلم والفلسفة والفن ، وتأثروا بهم فى كل شىء ، بعد أن سيطروا على بلادهم ، وصيروها جزءاً من الامبراطورية الرومانية الضخمة .

وفى ظل الحضـــــارة الرومانية ، والامبراطورية الرومانية ، ظهرت الدعوة المسيحية .

---

(١) عبد الكريم الخطيب : الله ... والانسان ، قضية الألوهية ... بين الفلسفة والدين ــ الطبعة الثانيــة ــ دار الفــكر العربى ــ ١٩٧١ ، ص ١٣٠ .

(٢) عباس محمود العقــاد : الشيخ الرئيس ابن سيناء ــ الطبعــة الثانية ــ رقم (٤٦) من سلسلة (اقــرأ) ــ دار المعارف بمصر ــ ١٩٦٧ ، ص ٣٨ ــ ٤٠ .

ونحت المسيحية فى هذه القضية – قضية الروح — منحى قريباً من المنحى الذى نحاه الفكر الإغريقى .

فأفلاطون يرى أن سمو الروح رهن بسمو الجسد ، وسمو الجسد رهن بسمو الروح ، وأن مصير الروح « مقدور بمصير المادة التى تلابسها ، فإن هبطت مع مادة الجسد ، صارت إلى جسم حيوان أو حشرة أو مخلوق حقير ، وإن ترفعت عن مادة الجسد ، صعدت إلى الرفيق الأعلى ، وعادت إلى عالم الخلد والكمال »[1] .

فالجسد والروح كانا على طرفى نقيض ، عند الفلاسفة الإغريق .

وظلت الخصومة بينهما فى المسيحية ، بل لعلها زادت — فى المسيحية — شدة .

وتعتبر تلك الخصومة بين الروح والجسد ، هى المحور الأساسى الذى تقوم عليه المسيحية كعقيدة دينية ، وبدونها ، أو بدون ذلك المحور ، تختل تلك العقيدة ، أو يختل فهمها .

فالإنسان — فى المسيحية — وارث خطيئة أبى البشر آدم ، ومن ثم أرسل الله ابنه (هكذا) ، وصلبه ، ليخلص البشرية من خطيئة آدم . أو على حد تعبير يوحنا الرسول :

— « وكما رفع موسى الحية فى البرية ، هكذا ينبغى أن يرفع الإنسان . لكى لا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية . لأنه هكذا أحب الله العالم ، حتى بذل ابنه الوحيد ، لكى لا يهلك كل من يؤمن به ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠ .

بل تكون له الحياة الأبدية . لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم ، بل ليخلص به العالم . الذى يؤمن به لايدان، والذى لا يؤمن قد دين ، لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد »[١] .

ولا يخفى المدافعون عن المسيحية جذور هذه الفكرة ، فى العقائد الدينية غير السماوية السابقة ، كعقيدة قدماء المصريين ، التى دارت حول عبادة هوراس ، الذى « دعى ابن الآب الوحيد ، وكلمة الآب ، ومبرر البار ، والملك الأبدى ، إلخ) » ، و « هذه الألقاب » ،« منها مايشبه ألقاب المسيح، ومنها ما ليس كذلك ، وقد أطلق كثير منها على الآلهة الأخرى »[٢] .

كذلك « وجد فى كتب الهنود الدينية ، قولهم — إن الإنسان كفر عن ذنوبه ، بنباتات الأرض ، ثم بحيواناتها ، ثم بفلذة كبده ، لكنه لا يمكن أن يخلص منها ، إلا إذا كفر عنها بإلهه » ، كما تقول « فلسفة سقراط » : « إن الإنسان لا يمكن أن يخلص من خطاياه ، إلا إذا نزل أحد الآلهة ومات ، للتكفير عنها »[٣] .

فالإنسان — وارث الخطيئة — لا يتطهر من خطيئته ، إلا إذا طهر نفسه منها ، بتعذيب جسده ، حتى تستخلص روحه ، فتعذيب الجسد ، هو سبيل خلاص الروح فى المسيحية .

---

(١) العهد الجديد : انجيل يوحنا — ٤ : الاصحاح الثالث : ١٤—١٨ .

(٢) كتاب البراهين العقلية والعلمية ، فى صحة الديانة المسيحية — تأليف وجمع : القائمقام ترتن ، من فرقة المهندسين — ترجمة حبيب افندى سعيد — الطبعة الثانية — مطبعة النيل المسيحية بالمناخ بمصر — ١٩٢٥ ، ص ٤٥٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٦١ — من الهامش .

ولم يكن غريباً — لذلك — أن يعظ السيد المسيح تلاميذه : « إن أراد أحد أن يأتى ورائى ، فلينكر نفسه ، ويحمل صليبه ، ويتبعنى . فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها . ومن يهلك نفسه من أجلى يجدها »[١] .

ولم يكن غريباً — بعد ذلك — أن يقول بولس الرسول لأهل غلاطية : «اسلكوا بالروح ، فلا تكملوا شهوة الجسد . لأن الجسد يشتهى ضد الروح ، والروح ضد الجسد »[٢] .

الروح فى الاسلام :

ويرد لفظ (الروح) فى القرآن الكريم ، فلا يملك القارئ إلا أن يحس بأنه هو (الرابطة) ، التى تربط الإنسان بربه وخالقه .

ولكن : على أية صورة يتم هذا الرباط المقدس ، بين الله ، وخليفته الإنسان ؟

يجيب القرآن الكريم على السؤال بحسم : (قل : الروح من أمر ربى)[٣] — كما سبق .

ويرد لفظ (الروح) فى القرآن الكريم ، منسوباً إلى الله سبحانه ، فى أكثر المواضع التى يرد فيها ، ولكنه قد يرد مشيراً إلى العلاقة التى تربط بين الله سبحانه ، وأى إنسان :

— « وإذ قال ربك للملائكة : إن خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين »[٤] .

---

(١) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الاصحاح السادس عشر : ٢٤ ، ٢٥ .

— انجيل لوقا — ٣ : الاصحاح التاسع : ٢٣ ، ٢٤

(٢) العهد الجديد : رسالة بولس الرسول الى أهل غلاطية — ٩ : الاصحاح الخامس : ١٦ ، ١٧ .

(٣) قرآن كريم : الأسراء — ١٧ : ٨٥ .

(٤) قرآن كريم : الحجر — ١٥ : ٢٨ ، ٢٩ .

وقد يرد مشيراً إلى العلاقة (الخاصة) بين الله سبحانه ، والمصطفين من عباده :

— « فادعوا الله مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون . رفيع الدرجات ذو العرش ، يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ، لينذر يوم التلاق »(١) .

— « لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون »(٢) .

والروح — على أية صورة وردت فى القرآن الكريم — إنما تسكن جسد الإنسان ، وهى ليست عنه بمعزل .

ويغلب على الظن أن هذه (الروح) ـ أو هذا (السر الإلهى الأعظم) ـ هى التى تجعل الإنسان إنساناً ، وبدونها يستحيل الإنسان حيواناً ، كما يقول بذلك علم النفس الحديث ، بفروعه المختلفة ، كما سبق .

فالجسد الإنسانى ، بكل أدواته وأجهزته ومعداته ، أشبه بأسلاك تمتد فى جدران منزل من المنازل ، ولكنها بذاتها لا تقدر على أن تشع نوراً ، أو تقوم بأية وظيفة تلقى عليها ، ما لم يسر فى أنحائها التيار الكهربائى .

فالتيار الكهربائى لايستطيع أن يسرى فى المنزل،بدونها .

---

(١) قرآن كريم : غافر — م٤٠ : ١٤ ، ١٥ .

(٢) قرآن كريم : المجادلة — ٥٨ : ٢٢ .

وهى لا تستطيع ـ بدون ذلك التيار ـ أن تشع نوراً ، أو توفر طاقة .

ومن ثم لا يمكن أن يكون الإنسان إنساناً ، ولا أن يعلو على الحيوانات، بدون الروح ، ولا يمكن للروح أن توجد بدون الجسد .

فمن خلال الجسد ، تمارس الروح وظائفها فى حياة الإنسان ، فترتقى به عن عالم الحيوان ، وتجعل له فى الحياة رسالة ، يعرفها ، ويعى أعباءها وتبعاتها، وينهض بها .

ولنا عود إلى هذه القضية من جديد مرتين : مرة عند الحديث عن الروح فى نظر العلم الحديث ، بعد قليل ، ومرة ثانية عند الحديث عن الإنسان فى الإسلام ، فى الفصل الأخير من الكتاب .

الروح فى نظر العلم الحديث :

واقتحم العلم الحديث مجال الروح ، وأخضع بحوثه فيها للتجربة العملية . وخرج لنا العلم الحديث بنتائجه .. المدهشة .

ويرى الدكتور رءوف عبيد، أن بداية الاهتمام بهذا العالم الروحى، كانت سنة ١٨٤٨ ، حيث عزيت إليها ـ فى الولايات المتحدة الأمريكية ـ مجموعة من الظواهر ، وأن « اكتشاف الاتصال اللاسلكى وتقدمه » « كان » « عاملا هاماً ، فى تذليل كثير من الاعتراضات النظرية ، التى كانت تثار فى الماضى ، حول وجود عالم الروح هذا ، لأنه عن طريق هذا الكشف الجديد ، أصبح من المفهوم التحدث عن أطوال الموجات ، وكيف أن لكل شىء رتبة تردد أو اهتزاز ، وبالتالى طول موجة . كما أصبح من المفهوم التحدث عن العقل الكونى العام ، بوصفه جهازاً للإرسال ، وعن عقل

الإنسان، بوصفه جهازاً صغيراً للاستقبال ، محــــدود القدرة بمستوى صاحبه »(١) .

ومن ثم كان للأنبياء قدرة خاصة .. في مسألة القدرة على الاستقبال من هذا (العقل الكوني العام) .. لا وجه للمقارنة بينها وبين قدرات غيرهم من الناس .. مهما بلغوا من العبقرية والنبوغ ، وقد كانت « حياة نبينا في الدنيا ، ثم في ضمير الأمة الإسلامية » ، على حد تعبير الدكتور عبد الرحمن بدوي ـ « تمثل تلك الصورة أروع تمثيل . أما في حياته ، فقد بدا شعوره بالرسالة الإلهية ، التي ألقيت إليه ، من لدن الواحد القهار الرحمن دفعاً ، ابتداءً من تحنثه ، حتى حجة الوداع » ، « فابتدأ شعوره بأنه وسيط بين الله وبين البشر ، بأنواع الرؤيا الصادقة ، التي كانت تجيئه (كفلق الصبح) »(٢) .

وعلم الروح فرع من فروع علم النفس ، وإليه ينتمي ، كما يفهم من اسمه في اللغة الانجليزية Psychic Science ، أو في اللغــــة الفرنسية Science Psychique ، فكلاهما نسبة إلى اللفظ اللاتيني Psyche بمعنى نفس ، وإليها ينسب علم النفس ذاته ، فيسمى بالإنجليزية Psychology ، وإن كان المهتمون بشئون الروح أنفسهم ، ينكرون هذه الصلة ، بين علم الروح وعلم النفس(٣) .

---

(١) الدكتور رءوف عبيد : مطول الإنسان روح ، لا جسد ، الجزء الأول (مرجع سابق) ، ص ٢٩ .

(٢) الدكتور عبد الرحمن بدوي : الإنسانية والوجودية في الفكر العربي ـ مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٧ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٣) الدكتور رءوف عبيد : مطول الإنسان روح ، لا جسد ، الجزء الأول (المرجع الأسبق) ، ص ١٥١ .

ويكفى أن ما كدوجل W. Mc Dougall (١٨٧١ — ١٩٣٨) ، الذى عرضنا رأيه فى (دوافع السلوك) ، عند الحديث عن (الإنسان .. نفسياً) ، فى الفصل الثانى[١] ، والذى يعتبر من أكبر علماء النفس ، كان ممن وجهوا البحوث فى علم النفس وجهة خاصة ، فأنشأ « معامل للباراسيكولوجى » داخل جامعة ديوك ، وهى المعامل التى نمت مع الوقت ، وتولى إدارتها من بعده مديرها الحالى، العلامة ج.ب. راين Joseph Banks Rhine .

وقد نجح مكدوجال — كما نجح من بعده راين — فى زعزعة أسس علم النفس المادى ، وتقويض كيانه ، ثم جاء من بعدهما يونج ، أشهر علماء النفس بعد فرويد ، لينعى هذه الأسس إلى الأبد ، كما يحل محله علم الروح ، أو إن شئت، علم النفس الروحى »[٢] .

ومثلما بالغ علم النفس — المادى — كما رأينا فى الفصول الثلاثة السابقة — فى بيان أهمية الجسد وحاجاته ، بالغ علم النفس الروحى ، فى بيان أهمية الروح فى حياة الإنسان ، حتى قالوا « إن الروح — لا الجسد — هى التى تمنح الإنسان شخصيته » ، و « إن الروح بدون الجسد ، لاتنقص شيئاً يذكر بالتالى ، وتكون هى جوهر الإنسان . فالروح هى صانعة الجسد ، كما هى صانعة مصيرها ، فى حدود نواميس الطبيعة »[٣] .

ومن ثم وقع رجال علم النفس الروحى ، فى نفس الخطأ الذى وقع فيه رجال علم النفس المادى ، حيث بالغوا فى إعطاء الأهمية ، لجانب واحد من

---

(١) ارجع الى ص ٤٩ من الكتاب .
(٢) الدكتور رءوف عبيد : مطول الانسان روح لا جسد — الجزء الأول (المرجع السابق) ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٠١ .

جوانب الإنسان ، دون سائر الجوانب ، ومن ثم لم يكن غريباً أن يفكروا بلغتهم ، ويعتبروا الدين (غريزة) ، « شأن غريزة البحث عن الطعام ، أو الدفاع من النفس ، أو أية غريزة أخرى »[1] ، وأن هذه « الغريزة الدينية ، أودعتها فى النفوس،طبيعة حانية ، لخدمة تطور الذات ، وارتقائها ، عن طريق إحساسها الدفين بالقوة الخـــالقة ، وبالخلود ، وبالثواب والعقاب »[2] .

ورغم اعتراضنا على (تعصب) علماء النفس الروحى ، أو علماء الروح ، للروح وأهميتها ، فإننا نجد فى بعض ما يقولونه ، حقائق لابد أن نشير إليها .

لقد ثبت من خلال ما قاموا به من دراسات علمية — أن للإنسان جسمين ، أو كيانين ، جسم — أو كيان — فيزيقى ، هو الذى نراه ، وجسم — أو كيان — أثيرى ، لانراه .

ونحن نستطيع أن نرى الجسم الفيزيقى ونسمعه ، لأنه يهتز — أو يتردد — بذبذبة تستطيع حواسنا التقاطها، أما الجسم الأثيرى ، فلا نستطيع أن نراه أو نسمعه ، لأنه يهتز — أو يتردد — بذبذبة لا تستطيع حواسنا التقاطها ، تماماً كما لا تستطيع التقاط الأشعة الكونية ، والأشعة الطويلة ، والأشعة السينية ، والأشعة الحرارية ، فهذه الأشعة كلها موجودة ، ولكن أجسامنا العادية لاتستطيع التقاطها، وإن كانت هناك أجهزة خاصة، تلتقطها بالفعل .

و « عالم الروح ، لايرى ولا يسمع ولا يلمس — مع وجوده الحقيقى —

---

(١) الدكتور رءوف عبيد : مطول الانسان روح لا جسد (الخلود — العقل — الاعتقاد ، فى ضوء العلم الحديث) — الجزء الثانى — الطبعة الثالثة — دار الفكر العربى — ١٩٧١ ، ص ٨١١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٠٧ .

لأنه أثير ، يهتز ، أى يتردد ، بسرعة تتجاوز سرعة الضوء .. فالأثير وسط غير مادى ، يتغلغل فى كل شىء . وهو صلب جداً ، ومرن جداً ، فى نفس الوقت » . « وهو يقع فى منطقة اهتزاز ، تتجاوز حتماً منطقة اهتزاز الأشعة السينية . لذا ، فهو يتخلل عالمنا ، ويحيط به من جميع الجهات ، ولا نشعر به ، لوقوعه فى هذه المنطقة العالية من الاهتزاز »⁽¹⁾ .

ويعيش الإنسان فى هذا العالم الأثيرى — أراد أم لم يرد — مرة أو أكثر كل يوم ، حين ينام ، تاركاً جسده ودنياه .. منطلقاً فى هذا العالم الأثيرى ، الذى ينكره الماديون .

والإنسان ينام ثمانى ساعات فى المتوسط كل يوم ، أى أنه يقضى ثلث عمره نائماً ، أو يقضيه — بعبارة أخرى — فى هذا العالم الأثيرى .

ويتوجه الإنسان إلى النوم متعباً مثلا ، لا يطيق جسده الحياة ، ولكنه يستيقظ من نومه ، قوياً نشيطاً ، ليواصل رحلة جسده فى عالم المادة ، من جديد ، وكله حماس .

ولسنا ندرى ، ما إذا كان الإنسان يستريح فى نومه لراحة أعضاء جسده ، من خلال النوم ، أو لتحرره تماماً من عبء الجسد ، وانطلاق روحه ، تحلق فى .. هذا العالم الأثيرى .

وأنا من أشد المؤيدين لهذا الرأى الثانى ، لأن العلم الحديث لا يزال عاجزاً عن اكتشاف (لغز) النوم هذا ، وهو لا يستطيع أن يقدم أكثر من تفسيرات ساذجة له ، و « أكثر من أن النائم يتخلص من إجهاده

---

(1) المرجع السابق ، ص ١٧ .

الجسدى ، وإرهاقه الفكرى . إن استرخاء عضلات الإنسان بنومه ، تساعد على تنشيط وتنظيم الدورة الدموية ، التى تطرد من الجسم، ما قد يكون سببه الإجهاد من مواد ضارة »[١] .

والنوم ليس قاصراً على الإنسان ، وإنما هو يمتد ، ليشمل الحيوان .. والنبات أيضاً ، فهو « ينام ، كما ينام كل كائن حى »[٢] .

وهو تفسير ساذج للنوم ، لأن الراحة يمكن أن تتم بالجلوس أو الاضطجاع .. دون النوم .

والقرآن الكريم يسوق (النوم) فى معرض حديثه عن النعم ، التى أنعم الله بها على الإنسان :

— « وهو الذى جعل لكم الليل لباساً ، والنوم سباتاً ، وجعل النهار نشوراً »[٣] .

— « وخلقناكم أزواجاً . وجعلنا نومكم سباتاً . وجعلنا النهار معاشاً . وبنينا فوقكم سبعاً شداداً »[٤] .

والنوم يرد فى الآيات — كما يبدو مما سبق منها — رابطة بين الإنسان ، وبين الكون المحيط به ، وبينه وبين الله سبحانه ، خالق الكون وخالق الإنسان ، وهذه حقيقة فاتت شراح القرآن الكريم ومفسريه ، كما فاتت العلماء المحدثين .

---

(١) عبد الرزاق نوفل : الله والعلم الحديث (مرجع سابق) ، ص ١٢١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٢ .
(٣) قرآن كريم : الفرقان — ٢٥ : ٤٧ .
(٤) قرآن كريم : النبأ — ٧٨ : ٨ — ١٢ .

وهى قد فاتت الشراح والمفسرين ، لأن العلم لم يكن قد تقدم فأثبت (وحدة الكون) و (وحدة الوجود) ، كما حدث فى النصف الثانى من القرن العشرين — وفاتت العلماء المحدثين، لأنهم علماء ماديون ، ينكرون هذه الوحدة منذ البداية ، لأنهم ينكرون وجود الله .

ومن ثم فسر الشراح والمفسرون (السبات)، على أنه « راحة ، وقيل موتاً ، لأنه الموتة الصغرى »[1] ، أو فسروه — علمياً — على أنه راحة ، تنتج عن « توقف الجهاز العصبى عن العمل ، وكذا توقف الوظائف الحيوانية الأخرى »[2] .

وربما كان الرجوع إلى كلمة (السبات) فى المعاجم ،مؤدياً بنا إلى الحقيقة ، فالسبات – لغة –هو« الراحة » «والنوم» ، والسبات « (فى الطب) : حالة يفقد فيها المريض وعيه فقداناً تاماً ، ولا يفيق منها بأقوى المنبهات ، بعكس الإغماء »[3] .

ولم تحل المعاجم اللغوية المشكلة حتى الآن ، ولكنها تحلها حين تقول : إن السبت اليهودى ، مأخوذ من الفعل (سبت) ، الذى أخذ منه المصدر (السبات)[4] — نعمة الله الكبرى .

---

(١) محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب : أوضح التفاسير — الطبعة الخامسة — المكتبة التجارية الكبرى — شعبان ١٣٧٥ — مارس ١٩٥٦ ، ص ٣٠٤ .

(2) ALI, ABDULLAH YUSUF : The Holy Qur – an, Text, Translation and Commentary, Volume Two; The Murray Printing Company, Cambridge, Massachusetts, U. S. A., 1946, p. 1250.

(٣) المعجم الوسيط — قام باخراجه ابراهيم مصطفى وآخرون — وأشرف على طبعه عبد السلام هارون — الجزء الأول — مجمع اللغة العربية — ١٣٨٠ هـ — ١٩٦٠ م ، ص ٤١٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤١٣ .

والقرآن الكريم نفسه، يستخدم نفس الفعل ، فى حديثه عن بنى إسرائيل ، فى حقبة من حقب تاريخهم الطويل ، الملىء بالظلم ، ومعصية الله ، إذ يقول — مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم :

— « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ، إذ يعدون فى السبت ، إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم ، شرعاً ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون »(١) .

ويفسر ابن كثير (السبت)، فعلا ومصدراً ، بأنه الطاعة والتربى من الله ، وبأن أهل هذه القرية الإسرائيلية، كانوا يعدون (أى يعتدون) فى السبت ، بمعنى أنهم « يعتدون فيه ، ويخالفون أمر الله فيه لهم، بالوصاة به إذ ذاك » ، وبأن الله كان يبتليهم ويختبرهم ، « بإظهار السمك لهم على ظهر الماء، فى اليوم المحرم عليهم صيده ، وإخفائه عنهم فى اليوم الحلال لهم صيده »(٢) .

فالسبت عند اليهود ، هو يوم الله ، ويوم الانقطاع لله ، ويوم الزهد والتصوف والتقشف ، ولا مكان فيه لحاجة من حاجات الجسد .

أو هو — بلغتنا فى هذا الفصل — يوم الجسم اليهودى الأثيرى ، وليس يوم الجسم اليهودى الفيزيقى .

ويكون السبات ، كما يرد فى القرآن الكريم ، بمعنى تخلص الإنسان الأثيرى، من أعباء جسمه الفيزيقى .

---

(١) قرآن كريم : الأعراف — ٧ : ١٦٣ .

(٢) اسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى (المتوفى سنة ٧٧٤ هـ) : تفسير القرآن العظيم — الجزء الثانى — ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م ، ص ٢٥٧ .

ويكون النوم نعمة من الله ، لأنه من خلاله يتحقق هذا التخلص ، وبدونه يكون الجسم الفيزيقي عبئاً ثقيلا على . . . الجسم الأثيرى .

ومن هنا تكون راحة الإنسان فى النوم ، لا براحة الأعضاء ، ولكن بارتداد الإنسان — أثيرياً — إلى الكون الواسع — إلى سر وجوده — يستمد منه الطاقة ، التى يدفع بها جسمه الفيزيقى ، فى عجلة الحياة اليومية .. الطاحنة .

وإذا كان الجسم الأثيرى يعود — بعد اليقظة من النوم — إلى الجسم الفيزيقى ، لتستمر الحياة الأرضية ، فإن هذا الجسم الأثيرى — فى حالة الموت — لا يعود إلى الجسم الفيزيقى .

وهى حقيقة كونية رائعة ، يكشف عنها الله سبحانه فى قوله — رابطاً بين النوم والموت ، ربطاً فهمه الإنسان منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، ويفهمه إنسان العلم الحديث والحضارة الحديثة :

— « الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »(١) .

فالموت « ليس أكثر من مجرد تغير ، من حالة إلى حالة »(٢) ، تماماً كذلك التغيير الذى يطرأ على جسم الإنسان ، عندما ينتقل من اليقظة إلى

---

(١) قرآن كريم : الزمر — ٣٩ : ٤٢ .

(٢) الدكتور رءوف عبيد : مطول الانسان روح لا جسد — الجزء الأول (مرجع سابق) ، ص ١٨ — من مقدمة الطبعة الثالثة .

النوم[١] ، حيث تتوقف بعض الأعضاء البيولوجية فى جسم الإنسان، عن أداء وظيفتها ، فتتوقف الأذن عن السماع ، والعين عن الرؤية ، والمخ عن التفكير ، وتصاب الأعصاب عموماً بلون من ألوان (الشلل) .

وعند الموت ، نجد هذا (الشلل) ينتقل إلى الجسم كله ، فنجد « جسمنا الأثيرى ينسل من جسمنا الفيزيقى ، ويعود الجسم الفيزيقى إلى الأرض ، أما الجسم الأثيرى ، وهو الذى يهيمن عليه العقل ، فيستمر فى تأدية وظائفه فى هـــذا العالم الأثيرى . . وتبقى الشخصية ، وهى بمعزل عن المادة الفيزيقية »[٢] .

ونحن نلاحظ فى حالة النوم ، حيث الانسلال الجزئى أو المؤقت للجسم الأثيرى ، من الجسم الفيزيقى ، كيف أن العقل ينطلق فى آفاق الماضى والحاضر والمستقبل ، فينسج للإنسان وجوداً آخر ، ويخلق له أحداثاً ، وردية جميلة ، أو شريرة مدمرة .. فيما يسمى (بالأحلام) ، وأن العقل يسجل هذه الأحلام ، ليستعيدها الإنسان كما هى .. عند اليقظة[٣] .

و « تعتبر (الرؤيا) ، من أقدم خصائص البشر ، إلا أن أسلافنا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٤ ـ نقلا عن :
ـ على حافة العالم الأثيرى ـ ترجمة المرحوم الأستاذ احمد فهمى ابو الخير ـ طبعة ٣ ، ص ٤٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٤ ـ نقلا عن نفس المرجع .

(٤) ولسنا هنا بطبيعة الحال نأخذ بتفسيرات فرويد البالية المقيتة للأحلام ، وانما نأخذ بالأحلام على النحو الذى تحدثنا عنه ، وعلى نحو ما نراها فعلا فى حياتنا اليومية ، عندنا وعند غيرنا ـ انطلاقا فى الماضى والحاضر والمستقبل ، انطلاقا يصل الى درجة كبيرة من الشفافية ، وقدرة على اقتحام المستقبل لاستطلاع آفاقه ، كما رأينا فى حلم سيدنا يوسف ، وكما نرى فى بعض أحلامنا نحن . .

كانوا يجهلون الحقائق النفسية ، التى اكتشفتها الدراسات الجديدة ، لحقيقة الرؤى »[١] .

وهى دليل حى على حياة الروح ، على أية صورة من الصور ، قبل أن يكتشف العلم الحديث ، تلك الحقيقة ، على النحو الذى كشفها عليه . وهى حقيقة ، لا نزال مصرين على أنها بعض الحقيقة ، لأن الحقيقة الكبرى للروح لا تزال — وستظل — فى علم الله وحده، كما سبق .

وربما كانت هذه القضية برمتها ، هى الموضوع الأساسى ، الذى سيدور حوله كتابنا القادم من السلسلة ، عن (اليوم الآخر) .

---

(١) وحيد الدين خان : الدين فى مواجهة العلم — ترجمة ظفر الاسلام خان — مراجعة عبد الحليم عويس — الطبعة الثالثة — المختار الاسلامى — القاهرة — ١٩٧٤ ، ص ٣٣ .

الفصل السادس

الذات . . الإنسانية

تقـــديم :

مزق العلم الحديث الإنسان شر ممزق ، على نحو ما رأينا فى الفصول السابقة ، وتعصب كل فرع من فروع هذا العلم الحديث ، لمنطقة واحدة من مناطق الكيان الإنسانى ، وألغى ، أو كاد أن يلغى ، ما عداها ، بشكل رأيناه يدعو إلى السخرية أحيانا .

فالغرائزيون من علماء النفس ، وعلى رأسهم فرويد ، تعصبوا لحاجات الجسد ، بل تعصبوا لحاجة واحدة ، وضعوها عنوانا لهذه الحاجات ، وهى الغريزة الجنسية ، ولهذه الغريزة الجنسية أخضعوا بقية جوانب الإنسان — العقلية والروحية .

وفى نفس الخطأ ، وقع علماء النفس الاجتماعى ، وعلماء النفس التعليمى ، وعلماء الروح ، أو علماء النفس الروحى . . أيضاً ، الذين اعتبروا الإنسان (روحاً لا جسداً) لا روحاً وجسداً[1] ، فأعطوا الروح الوزن كله ، وألغوا كل ما عداه .

وعاد العلماء المحدثون ، على اختلاف تخصصاتهم ، فلموا شتات الإنسان من جديد ، ليدرسوه مجمعاً — بعد أن مزقوه — تحت عنوان (الشخصية) ،

---

(١) الدكتور رءوف عبيد : مطول الانسان روح لا جسد — الجزء الأول (مرجع سابق) ، ص ١٠١ .

أو (الذات الإنسانية) Human Character ، على نحو ما عنونا هذا الفصل ، لأن (الذات الإنسانية) — فى نظرى — أدق فى الدلالة على طبيعة الإنسان من (الشخصية) — على نحو ما سنرى .

ورغم ذلك ، فسنستخدم — مؤقتاً — لفظ (الشخصية) فى هذا الفصل ، لنستخدم نفس لغتهم ، ولتتم الدراسة فى مسار واحد — حتى نصل إلى (الإنسان .. فى الإسلام) ، فنستخدم لغتنا نحن .

تعريف الشخصية :

ويعرف علماء النفس الشخصية ، بأنها هى « هذا الانتظام الدينامى ، داخل الفرد ، لأجهزته الفرعية ، والذي يحدد توافقاته مع البيئة »[(١)] ، أو « هى تنظيم الفرد لأفكاره وأعماله واتجاهاته فى العمل » ، تنظيماً « من شأنه أن يجعل شخصية الفرد وحدة فى أساسها »[(٢)] ، أو هى « (الأسلوب) النفسى للفرد ، أو الأسس الأكثر اتساقاً واطراداً ، والتى تعتمد عليها استجاباته لمواقف الحياة . والشخصية هى التى تعطى أصدقاءنا ومعارفنا الفرصة ، للتنبؤ باستجاباتنا فى ظروف معينة . وبالطبع ، ففى بعض الحالات (وفى أعمار معينة ، وعند الذكور أو الإناث) ، قد تكون اللاتنبؤية فى ذاتها ، سمة من سمات شخصية الفرد »[(٣)] .

---

(١) دكتور صلاح مخيمر ، وعبده ميخائيل رزق : سيكولوجية الشخصية (مرجع سابق) ، ص ١٣٢ .

(٢) دكتور سيد محمد غنيم (مرجع سابق) ، ص ١١٣ .

(٣) س. ر. ب. جويس : « العقاقير والشخصية » ــ الفصل الرابع عشر من : آفاق جديدة فى علم النفس ــ أشرف على تأليفه : ب. م. فوس ــ ترجمة دكتور فؤاد أبو حطب ــ عالم الكتب ــ ١٩٧٢ ، ص ٣١١ .

وعلى ذلك ، فإن « كل صفة تميز الشخص عن غيره من الناس ، تؤلف جانباً من شخصيته . فذكاؤه ومواهبه الخاصة وثقافته وعاداته ونوع تفكيره وآراؤه ومعتقداته ، من العناصر التي يأتلف بعضها مع بعض ، لتكوين شخصيته . كذلك مزاجه ، ومدى نضجه الانفعالي ، وقدرته على احتمال الشدائد ، وأسلوب حياته . وقل مثل ذلك ، فيما يتسم به من سمات اجتماعية وخلقية ، كحساسيته لمشكلات المجتمع ، واشتراكه في نشاطه ، وما يتصف به من صدق أو كذب ، من رحمة أو قسوة ، من تسامح أو تشدد». « ولذا نستطيع أن نقول : إن الشخصية هي جملة الصفات الجسمية والعقلية والمزاجية والاجتماعية والخلقية ، التي تميز الشخص عن غيره ، تميزاً واضحاً »[1] .

وهكذا ، يعتبر معنى الشخصية — في نظر علم النفس — « من أشد معاني علم النفس تعقداً وتركيباً ، لأنه يشمل جميع الصفات ، الجسمانية والوجدانية والعقلية والخلقية ، في حالة تفاعلها بعضها مع بعض ، وتكاملها في شخص معين ، يعيش في بيئة اجتماعية معينة »[2] ، ولأن سلوك هذه الشخصية « هو سلوك كلي كلي معقد ، يخضع لعوامل يرثها الإنسان ، كما يخضع لعوامل احتكاك الإنسان ببيئته الخارجية » ، وهو « دليل على نمو كلي معقد ، خضع له الإنسان ، من لحظة تكوينه ، إلى اللحظة التي سلك فيها هذا النمط المعين من السلوك »[3] .

---

(١) دكتور أحمد عزت راجح : أصول علم النفس (مرجع سابق) ، ص ٤٦٩ .

(٢) الدكتور يوسف مراد : مبادىء علم النفس العام (مرجع سابق) ، ص ٣٦٣ .

(٣) الدكتور أحمد زكي صالح : علم النفس التربوي (مرجع سابق) ، ص ٧٠ .

وفى داخل هذا السلوك الكلى الكتلى ، يمكن أن نرى أن لكل شخصية مجموعة من المميزات ، الجسمانية والحركية والعقلية والمزاجية والاجتماعية .. والروحية أيضاً .

ومن خلال هذا السلوك الكتلى المعقد ، المادى الروحى ، والنفسى الاجتماعى ، تعرف الشخصية فى خارج إطارها المادى ، وبه تترك (بصمتها) على ماحولها ومن حولها ، فمن «المسلم به ، أن خلايا المخ تعمل كمولد كهربى ، يبعث الكهرباء إلى الأعصاب ، التى تبعث بها إلى الخارج ، فى صورة أمواج أثيرية ، تشبه تلك التى تبعث بها محطات الإرسال المختلفة ، وهذه الكهرباء النسبية ، ذات نشاط فعال ، لأنها من النوع الديناميكى ، وتتفاوت درجات اهتزازها تفاوتاً ضخماً »[1] . ومن هنا نرى أن لبعض الشخصيات سحراً وجاذبية ، وأن بعضها الآخر ينفر الإنسان منه ، وبعضها الثالث لا تحس بوجوده .. وهكذا .

العوامل المؤثرة فى الشخصية :

رأينا فى الفصول السابقة ، ما يمكن تلخيصه فى أن « النمو الإنسانى عملية معقدة ، تتفاعل فيها قوى موروثة ، وعناصر تنبع من الحياة الداخلية ، وأشكال من الاستجابة المكتسبة ، ومنبهات ترد من العالم الخارجى . وكل طفل يولد مزوداً بقدر من الإمكانيات الفطرية ، بعضها مرن ، وبعضها الآخر يعين إلى حد كبير حدود نموه» . و«الطفل يولد فى مجتمع ، ولامناص من ذلك ، حتى فى أكثر الأحوال بدائية ، وهذا يعنى أن نموه يتضمن

---

(١) الدكتور رءوف عبيد : مطول الانسان روح لا جسد — الجزء الثانى (مرجع سابق) ، ص ٣٠ .

دائماً ، فضلا عن النضج الشخصى الصرف ، عنصر التطبيع الاجتماعى . وكلما زادت سن الطفل ، اشتدت الضغوط الواقعة عليه من المجتمع »(١) .

وهكذا ، « يمكن أن يقال : إن الفروق بين الأفراد ، ترجع إلى مجموعتين من العوامل : المجموعة الأولى هى الاستعدادات الوراثية الكامنة فى الجينات ، والمجموعة الثانية هى مجموعة الظروف المحيطة بالفرد ، من تغذية وحرارة ومعاملة ووقاية وتعليم .. وغير ذلك »(٢) .

وترى الدراسات الحديثة ، أن الفرد يولد ، وليست لديه أية « شخصية عند الولادة ، وكل ما يملكه آنئذ هو القدرة على تطوير الشخصية ، وعدد قليل من العناصر ، التى ستندمج فى التشكيل النهائى . ويظهر الطفل على مسرح الحياة ، وفيه عدد من الصفات المحددة من الناحية الفيزيولوجية . فوجود الدماغ ، والجهاز العصبى ، يزوده بإمكانات لتطور التفكير ، ولتقبل المنبهات الخارجية ، ولتكوين العادات والصلات بين الأشياء . ويبدو أن هذه الإمكانات تختلف بعض الشىء ، من فرد إلى آخر » .

و « يبدو أن عملية تكوين الشخصية ، هى بالدرجة الأولى ، عملية يجرى فيها اندماج خبرات الفرد ، مع صفاته التكوينية ، لتشكل معاً وحدة وظيفية متكاملة ، تكيفت أجزاؤها بعضها مع بعض ، تكيفاً متبادلا وتستمر هذه العملية طوال حياة الفرد . ولكن فعاليتها تبدو على أشدها

---

(١) و. د. وول : التربية والصحة النفسية — ترجمة الدكتور ابراهيم حافظ — مراجعة الدكتور عبد العزيز القوصى — رقم (٤٧٧) من (الألف كتاب) — دار الهلال ، ص ١٧ ، ١٨ .

(٢) الدكتور عبد العزيز القوصى : أسس الصحة النفسية (مرجع سابق) ، ص ١٦ .

فى سنى النمو الأولى . وتعتمد الخبرة على احتكاكات الفرد مع بيئته ، ولكنها تنتج عن التفاعل بين بيئة الفرد ، وبين صفاته التكوينية »[١] .

ومن ثم كان ما قال به علماء النفس الاجتماعى ، وتعرضنا له عند الحديث عن (الإنسان اجتماعياً) فى الفصل الرابع ، من « أن كل مجتمع يسهم فى صناعة نمط الشخصية الخاص به »[٢] ، وإن كنا قد اعترضنا على ما يقول به علم النفس الاجتماعى هنا ، من أن الإنسان مجرد (قابل) للثقافة ، لأنه — فى حالات كثيرة — يبدو (فاعلا) لها[٣] ، فإن « الشخصيات تؤثر على الثقافة ، كما أن الثقافة تؤثر بدورها على الشخصية »[٤] .

ورغم اتفاق الآراء بين المشتغلين بعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأنثروبولوجى ، حول تفاعل الأجهزة الداخلية للإنسان ، مع المجتمع أو البيئة ، فى تشكيل نمط الشخصية ، فإن هناك عدداً من الآراء ، لا يزال مصراً على تغليب هذا الجانب أو ذاك . . لتحقيق أهداف معينة ، لا تخفى على فطنة اللبيب . ونحن نعرض بعضها هنا — لمجرد العلم وحده ، لأن لها تأثيراً فى حياتنا العامة هنا ، خاصة فى العالم الإسلامى .

ويرى ويلارد أولسون ، أن مناقشة هذه القضية ، « تبلغ من الضخامة

---

(١) رالف لنتون (مرجع سابق) ، ص ٦٠٩ ، ٦١٠ .

(٢) د. برايس — وليامز : « الدراسات الثقافية المقارنة » — الفصل الحادى والعشرون من : **آفاق جديدة فى علم النفس** — أشرف على تأليفه : بى. م. فوس — ترجمة دكتور فؤاد أبو حطب — عالم الكتب — ١٩٧٢ ، ص ٤٦٨ .

(٣) ارجع الى ص ٧٣ — ٧٧ من الكتاب .

(٤) رالف لنتون (مرجع سابق) ، ص ٦٠٨ .

مبلغاً كبيراً ، حتى أنه لم يعد مستغرباً أن ينتقل النقاش إلى الميدان السياسى والاجتماعى » . « إن مناصرة الوراثة قد استغل من الناحية التاريخية ، لدعم الأوضاع القائمة فى السياسة ، والدفاع عن الحالة القائمة . بينما كان الإيمان القوى بالتأثير المحتمل للبيئة ، أساساً للحركات التقدمية ، فى السياسة وتشريعات الإصلاح الاجتماعى »[١] .

المدرسة الوراثية فى تكوين الشخصية :

ويتعصب لهذه المدرسة علماء الطب وعلماء الوراثة (الجينات) ، وبعض علماء النفس من مدرسة فرويد ، ومن لا يزالون متأثرين بداروين (الداروينيين) .

وهم — فى تعصبهم — يكادون يجعلون من الإنسان (أسيراً) لصفاته المتوارثة ، وأن هذه الصفات المتوارثة من خلال الجينات ، تكاد أن تكون قدر الإنسان ، ولا فكاك للإنسان من قدره هذا ، إلا بوسائل يرونها ، لتحسين (السلالات) البشرية .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن هذه النظرة ليست حديثة تماماً ، فلها جذورها الضاربة فى أعماق الفكر الإنسانى القديم ، فقد « كانت العبودية عند أرسطو متأصلة فى الطبيعة الإنسانية الأصلية ، والاختلافات الفطرية فى النوع موجودة ، لدرجة أن بعض الأفراد يوهبون بالطبيعة القدرة على التخطيط ، وعلى القيادة والإشراف ، فى حين لا يمتلك آخرون إلا القدرة على الطاعة والتنفيذ ، وبذلك تصبح العبودية طبيعة لا يمكن تجنبها »[٢] .

---

(١) ويلارد أولسون (مرجع) ، ص ٢٠٩ .

(٢) جون ديوى : الطبيعة البشرية والسلوك الانسانى — ترجمة وتقديم الدكتور محمد لبيب النجيحى — مؤسسة الخانجى بالقاهرة — ١٩٦٣ ، ص ١٣٢ .

لقد كانت مسألة (الطبقات) الاجتماعية عميقة الجذور فى الفكر الإغريقى القديم، حتى أن أفلاطون، أستاذ أرسطو، وهو يعتبر — بحكم حياة أثينا فى عصره — من فلاسفة الإغريق (اليساريين)، حتى أن (جمهوريته) و (مجتمعه المثالى) Vtopia كانت نموذجاً مثالياً، لكل الفلاسفة المثاليين، الذين ظهروا بعده، ابتداء من السير توماس مور Sir Thomas More فى القرن السادس عشر، وانتهاء بكارل ماركس، فى القرن التاسع عشر[(١)] — كان (أفلاطون) يرى «أن أكبر ما يهدد أمن المجتمع، أن تفكر طائفة من طوائفه، فى تغيير الطبقة التى خلقت لها، وكأن تقسيمه هذا منزل من السماء»[(٢)].

ولكن هذه الفكرة القديمة، لا تزال تجد لها أنصاراً فى عالمنا المعاصر، من رجال السياسة والفكر، كما تجد لها أنصاراً من رجال العلم أيضاً.

ويكفى أن هذه الفكرة القديمة الجديدة، كانت هى التى كتبت تاريخ العالم قرابة قرنين كاملين من الزمان، ابتداء من نهايات القرن الثامن عشر، وحتى منتصف هذا القرن، حيث التوسع الاستعمارى الكبير، وحيث «راح الأوروبيون فى كل مكان، يفتحون الأمصار، ويخضعون سكانها الأصليين، متخذين من أنفسهم ارستقراطيات حاكمة». «وطالما كان الرجل الأبيض من أفراد الجماعة الحاكمة، وكان الأسود أو الحنطى من أفراد الجماعة المحكومة، فقد تولد عند الجانبين وعى متزايد، للفوارق الجسمية بينهما».

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : الأيديولوجيا والتربية، مدخل لدراسة التربية المقارنة — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٦، ص ٣١٣، ٣١٤.

(٢) دكتور عبد الغنى النورى، ودكتور عبد الغنى عبود : نحو فلسفة عربية للتربية (مرجع سابق)، ص ١٠٢.

« ولم يكتف الأوروبيون آنذاك، بقبول سيطرتهم السياسية والاجتماعية ، وكأنها حقيقة واقعة ، بل راحوا منذ البداية تقريباً يبذلون المحاولات ، لإيجاد تبريرات منطقية للوضع القائم ، ليثبتوا لأنفسهم بأن إخضاعهم للفئات المختلفة من عنصرهم ، إنما هو أمر طبيعى ، لامفر منه . ولربما كان الذى دفعهم إلى هذا ، هو إدراكهم لحقيقة لم يجهروا بالاعتراف بها ، وهى أن ما أخذ بالسيف ، فبالسيف يؤخذ ، وإذا كانت سيطرة أوروبا على العالم ، ما هى إلا نتيجة لحدث تاريخى ، فحدث تاريخى آخر ، قد يؤدى إلى القضاء على تلك السيطرة .

بنيت المحاولات الأولى لتبرير السيطرة الأوربية ، على أسس خارقة للطبيعة ، تتعلق بالعقاب والثواب . وبما أن الأوروبيين كانوا مسيحيين ، بينما أكثر الشعوب التابعة لهم غير مسيحية ، كان طبيعياً حسب تعليلهم أن يكافئ إله المسيحيين ، القادر على كل شىء ، حزبه ، حتى أن موالى العبيد ، استندوا فى تبرير سيادتهم ، إلى نص صريح فى كتاب العهد القديم ، حيث كتب على أبناء حام ونسلهم من بعدهم ، أن يكونوا حطابين وسقاة ماء . إلا أنه سرعان ما ضعفت قوة تلك الأنظمة الخارقة للطبيعة ، وأخذ البيض يفتشون عن تبريرات طبيعية ، تكون بديلة لها ، فجاءت نظرية النشوء والارتقاء ، وبقاء الأصلح ، أداة جاهزة فى أيديهم »(١) .

وربما كان غريباً ، أن نعلم أن هذه التفرقة العنصرية ، أصيلة فى الفكر المسيحى ، وأنها واردة فى الكتاب المقدس ، فها هو بولس الرسول ، يكتب إلى أهل غلاطية ، رسالة مطولة ، يقول فيها : « لكن ، ماذا يقول الكتاب :

---

(١) رالف لنتون (مرجع سابق) ، ص ٧٠ ، ٧١ .

اطرد الجارية وابنها ، لأنه لا يرث ابن الجارية مع ابن الحرة . إذاً أيها الإخوة ، لسنا أولاد الجارية ، بل أولاد الحرة »[(١)].

وبطرس الرسول، بنفس المنطق ، يكتب فى رسالته الأولى : « وأما أنتم فجنس مختار ، وكهنوت ملوكى ، أمة مقدسة ، شعب اقتناء ، لكى تخبروا بفضائل الذى دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب . الذين قبلا لم تكونوا شعباً ، وأما الآن ، فأنتم شعب الله . الذين كنتم غير مرحومين ، وأما الآن فمرحومون »[(٢)].

فأبناء الحرة وأبناء الجارية ، وشعب الله المختار ، وغيرها وغيرها ، ليست أفكاراً قاصرة على اليهود، وإنما هى أصيلة عند المسيحيين أيضاً ، مهما كان المصدر الذى تسربت منه إليهم .

ولا يمكن أن تمر هذه النقطة بالذات ، دون الإشارة إلى الحروب الصليبية ودوافعها ، ولو بمجرد إشارة — ودون الإشارة إلى تورط الكنيسة الكاثوليكية فى هذه الحروب إلى ذقنها ، ولو بمجرد إشارة[(٣)] — ودون

(١) العهد الجديد : رسالة بولس الرسول الى أهل غلاطية — ٩ : الاصحاح الرابع — ٣٠ ، ٣١ .

(٢) العهد الجديد : رسالة بطرس الرسول الأولى — ٢١ : الاصحاح الثانى : ٩ ، ١٠ .

(٣) للتفصيل — ارجع — على سبيل المثال ، لا الحصر — الى :

أ — الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية (تبحث الأدوار التى مرت بها عقائد النصارى ، وفى كتبهم وفى مجامعهم المقدسة وفرقهم) — الطبعة الرابعة — دار الفكر العربى — ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م ، ص ١٨٨ .

ب — محمد صبيح : المعتدون اليهود ، من أيام (موسى) الى أيام (ديان) — مطبعة دار العالم العربى — ١٩٦٨ ، ص ٢٥٢ .

جـ — الدكتور عبد الدايم أبو العطا البقرى الانصارى : أهداف الفلسفة الاسلامية ، نشأتها وتطورها — دار الفكر العربى — ١٩٤٨ ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

الإشارة إلى أن المناصرة الكبرى للصهيونية المعاصرة ، إنما تأتى من أعدائها التقليديين ، وهم المسيحيون ، الذين ينسون خصومتهم لليهود ، أمام كراهيتهم الأشد ، للإسلام والمسلمين — ولو مجرد إشارة[١] .

ويرى كيرتس ، أن « مسألة نقاء الدم هذه ، نظرية تسرى فى الرأى العام الأمريكى بشكل واسع »[٢] ، كما يسخر رالف لنتون — فى الوقت ذاته — من أن « الأنصار الرئيسيين للنظرية القائلة بأفضلية السلالات النقية ، هم من سكان أوروبا ، وهى القارة التى تفوق جميع مناطق العالم الأخرى ، من حيث تغلغل التهجين بين سكانها ، فمن غير المحتمل أن نجد بين الأوروبيين الأحياء اليوم ، أى شخص ، لا يضم أجداده مالا يقل عن هجين واحد ، لا بل إن معظم الأوروبيين ، هم نتيجة لسلسلة طويلة من التسافد »[٣] .

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للأوربيين ، فكيف يكون بالنسبة للأمريكيين ، وهم قوم لا أصل لهم على الإطلاق ؟

ولكنه الغرور ، الذى ركب النفوس ، فأذلها ، وأعماها عن أن ترى أو أن تسمع .

---

(١) والى هذه النقطة ، أشرنا بشيء من التفصيل فى الكتاب الثانى من السلسلة — ارجع الى :

— دكتور عبد الغنى عبود : الله والانسان المعاصر (مرجع سابق) ، ص ١٠٢ ، ١٣٠ .

(2) CURTIS, JACK H.; Op. Cit., p. 18.

(٣) رالف لنتون (مرجع سابق) ، ص ٥٥ .

وهو نفس الغرور ، الذى ركب النازيين والفاشست ، وركب — من بعدهم — بنى إسرائيل ، بعد أن تمكنوا — بالخديعة — من أن يقيموا لهم وطناً ، على أشلاء أصحابه الأصليين .

المدرسة الجماعية فى تكوين الشخصية :

ويتعصب لهذه المدرسة علماء الاجتماع ، وعلماء علم النفس الاجتماعى ، تناصرهم الحكومات المستبدة بطبيعة الحال .

وربما كان (الماديون) من الفلاسفة ، هم الذين تتركز فيهم هذه الاتجاهات جميعاً .

وعلى رأس هؤلاء الماديين المعاصرين .. كارل ماركس ، والشيوعيون من ورائه .

ويرى هؤلاء الماديون ، أنه حتى العقل ، لا قيمة له ، كجهاز داخلى من أجهزة الجسم ، وأن «الأفكار انعكاسات للمطالب المادية ، وأدوات للتغلب على العقبات ، حتى تقوم الآلة الإنسانية بوظيفتها ، فى يسر وسهولة »[(١)] .

وتبلغ هذه الفلسفة المادية ذروتها فى إلغاء (الذات الإنسانية) ، أو (الشخصية) ، فى فلسفة كارل ماركس ، الذى يرى أن الإنسان — بكل جوانبه — لا يعدو أن يكون ظاهرة اجتماعية اقتصادية ، ففى رأيه أن « الفكر وليد الطبيعة ، بمعنى أن الطبيعة هى التى أبرزت الفكر ، وحققت وجوده ، ولولا أشياء الطبيعة ، لما ظهر للفكر أثر » ؛ فتلك « الأشياء هى التى تنبت الأفكار ، وترسم حدودها ، فليس العقل شيئاً خارجاً عن طبيعة

---

(١) فيليب هـ. فينكس (مرجع سابق) ، ص ٧٨٥ .

المادة ، وإنما هو صورة من صورها »[١] .

وهكذا أنزلت الماركسية الفكر ، « إلى عالم الأشياء المحدودة ، فى حيز الزمان والمكان »[٢] .

الطبيعة الانسانية :

ومثلما أدت هذه النظرات الجزئية المحدودة إلى (الذات الإنسانية) ، أو إلى (الشخصية) ، إلى ألوان من الشطط ، رأينا بعضها فى هذا الفصل ، ورأينا كثيراً منها فى الفصول السابقة — أدت نفس هذه النظرات الجزئية المحدودة، إلى ألوان أخرى من الشطط ، تتصل (بالطبيعة الإنسانية) ، ونرى فى فهم هذه (الطبيعة الإنسانية) تناقضات ، كتلك التناقضات التى رأيناها منذ قريب بين الوراثيين والجماعيين ، والتى رأيناها فى الفصول السابقة، بين مدارس علم النفس المختلفة .

ترى بعض المدارس أن (الشر) جزء من تكوين الإنسان ، لايتجزأ .

أما مصدر هـــــذا الشر ، فهم يختلفون فيه ، وإن كانوا يتفقون على وجوده .

و« كثيراً ما يقال إن الشر فى الإنسان، هو نتيجة وجود جسم لديه » ، «فتعطشه للطعام وللراحة وللإشباع الجنسى ، هى سبب هذه المجموعة الكبيرة من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية » .

---

(١) عبد الكريم الخطيب : الله ذاتا وموضوعا (مرجع سابق) ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٧ .

« والنظرة إلى الجسم على أنه مصدر الشر فى الإنسان، تقوم على فرضية ثنائية العقل والمادة ، أو الروح والجسم » .

و « رأى آخر، أن الشر الإنسانى لا يسببه الجسم فى الإنسان ، ولكن طبيعته الروحية . ومعنى (الروح) هنا ، جميع القدرات الإنسانية المتميزة ، كالعقل والخيال ، والقدرة على الكلام والحرية والسمو بالذات » .

و « البعض يؤكد أن الشر يأتى من المجتمع . والمؤيدون لهذه النظرية ، يرون أن الإنسان كفرد ، هو خير فى أساسه ، ولا يصبح شريراً ، إلا نتيجة التأثيرات المعارضة المحبطة ، الناتجة عن بيئته الاجتماعية » .

« وقد ينسب الشر فى الحياة الإنسانية ، إلى القوى الشيطانية ، لا إلى الأفراد، أو إلى المجتمع » .

« والاعتقاد فى القوى الشيطانية يرتبط فى العادة بالإيمان ، بوسائل روحية رقيقة »[١] .

ولم تنبع فكر (الشر) الإنسانى هذه من فراغ ، وإنما هى نبعت من أساس ثابت فى الفكر الغربى ، وهو الدين المسيحى ذاته .

فالفكرة المسيحية ، تقوم على أن « الإنسان الأول سقط فى عثرة العصيان » ، « ولما كان الشوك لا يثمر تيناً ، فقد صار جميع نسل هذا الإنسان الأول فاسداً كفساده »[٢] — وعلى أن الله سبحانه أرسل ابنه (المسيح) ، إلى

(١) فيليب هـ . فينكس (مرجع سابق) ، ص ٨٦٥ — ٨٧٠ .
(٢) الايغومانس ابراهيم لوقا : المسيحية فى الاسلام — الطبعة الأولى — مطبعة النيل المسيحية — يوليو ١٩٣٨ ، ص ١٥٨ .

الأرض ، ليعلق على الصليب ، كفارة للإنسان على هذه الخطيئة ، « فمحبة الله للخطاة ، كانت علة كفارة المسيح »(١) .

ونستطيع أن نرى ذلك واضحاً فى العهد الجديد ، فى أماكن كثيرة ، منها — مثلا — رؤيا يوحنا اللاهوتى : « ... ومن يسوع المسيح ، الشاهد الأمين ، البكر من الأموات ، ورئيس ملوك الأرض . الذى أحبنا ، وقد غسلنا من خطايانا بدمه . وجعلنا ملوكاً وكهنة لله أبيه »(٢) .

ولم يكن غريباً — لذلك — أن يرى فرويد ، اليهودى الصهيونى المتعصب ، نفس الرأى ، وإن كان يراه (على الطريقة اليهودية) ، فهو يرى « أن الإنسان أساساً (شرير) ، وأن أوامر المجتمع هى التى تجعله (طيباً) »(٣) .

وترى مدارس أخرى، أن (الخير) هو الأساس فى التكوين الإنسانى، لا الشر ، « وكان أول من رأى هذا الرأى هو فلاسفة الإغريق ، وعلى رأسهم معلمهم سقراط ، ومدرسة السوفسطائيين »(٤) .

---

(١) كتاب البراهين العقلية والعلمية ، فى صحة الديانة المسيحية (مرجع سابق) ، ص ٢٣٠ .

(٢) العهد الجديد : رؤيا يوحنا اللاهوتى — ٢٧ : الاصحاح الأول : ٥ ، ٦ .

(٣) آدم كيرل : استراتيجية التعليم ، فى المجتمعات النامية — دراسة للعوامل التربوية والاجتماعية ، وعلاقتها بالنمو الاقتصادى — ترجمة سامى الجمال — مراجعة د. عبد العزيز القوصى — الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار ، ص ٢٤ .

(٤) دكتور عبد الغنى النورى ، ودكتور عبد الغنى عبود (مرجع سابق) ، ص ١٠٩ .

وعادت هذه المدرسة إلى الظهور من جديد ، بعد الإصلاح الدينى فى أوربا سنة ١٥١٥ ، والثورة على الكنيسة الكاثوليكية ، بعد أكثر من عشرين قرناً من هؤلاء الفلاسفة الإغريق ، ولكنها كانت ذات شقين ، أو تفرعت عنها — بعبارة أصح — مدرستان ، أولاهما هى المدرسة الطبيعية ، وكان من أكبر أنصارها الفلاسفة جان جاك روسو ، وباسيدو ، وهربرت سبنسر ، وسير برسى نن ، وماكدوجل ، والأديب الإنجليزى برنارد شو . والثانية هى المدرسة المثالية ، المتأثرة مباشرة بأفلاطون ، وكان من أكبر أنصارها كومينيوس ، وكانت ، ونخت ، وبستالوتزى ، وفروبل ، وهيجل .

والقول بأن الإنسان خير بطبعه ، كالقول بأن الإنسان شرير بطبعه ، كلاهما لا يتفق مع منطق الأشياء ، فالإنسان الخير والإنسان الشرير ، موجودان معـاً ، فى المجتمع الواحد ، بل وفى البيت الواحد ، يظلهما سقف واحد .

ولكنها المقدمات الخاطئه — كما سبق — لا تولد — فى النهاية — إلا نتائج خاطئة ، وإن اختلف مسار الخطأ ، ومداه ، ونتائجه أيضاً .

ومرة ثانية .. تبدو إيجابية الإسلام ، كما سنراها فى الفصل الأخير — التالى — من الكتاب .

الفصل السابع

الإنسان . . . فى الإسلام

تقـــديم :

لا أكون مبالغاً إذا قلت : إن الإنسان فى الإسلام ، هو هو إنسان القرن العشرين .. وزيادة .

وهم يسمون القرن العشرين (بعصر الإنسان) ، ويقصدون بهذه التسمية ، أن الإنسان قد وصل فى هذا القرن إلى درجة من التكريم ، لم يصل إليها فى عصر آخر سبقه ، وأن هذا التكريم يتمثل فى تلك (الحقوق) التى توفرت له فيه ، سواء ما يتصل منها بالحرية ، المتعددة الجوانب ، وما يتصل منها بالثقة فيه ، وفى ذكائه وإمكانياته .

ولقد أصبح الإنسان — فى هذا القرن — هدفاً فى حد ذاته .

وهكذا الإنسان فى الإسلام ، وزيادة ، منذ أربعة عشر قرناً من الزمان.

وتأتى هذه الزيادة ، من أن القرن العشرين ، أخذ من الإنسان باليسار ، ما أعطاه له باليمين ، على نحو ما سنرى فى الجزء الأخير من الكتاب .

وقد أخذ منه باليسار ، ما أعطاه له باليمين ، لأنه — حين أعطاه وحين أخذ منه — لم ينظر إليه كإنسان ، وإنما نظر إليه .. كحيوان .

أما الإسلام ، فقد أعطاه وزيادة ، لأنه أعطاه منذ البداية — كإنسان.

ولتكون الصورة كاملة — دعنا نبدأ قصة هذا الإنسان منذ البداية — منذ خلقه ربه .

خلق الانســان :

قلنا فى الكتاب السابق من السلسلة : إن العلم الحديث يرى « أن مادة الكون ، وهى غاز الايدروجين ، قد خلقت من عدم مطلق ، وأن النظام الشمسى عبارة عن كتلة سديمية تهشمت ، فتناثرت شموساً كبيرة ، منها شمسنا هذه ، وحول هذه الشمس ، تكونت مجموعة الكواكب ، ومنها كوكبنا هذا (الأرض) »[١] .

كما يرى العلم الحديث — كما سبق فى الكتاب السابق من السلسلة — أن الحياة الأولى على هذه الأرض بدأت فى صورة بسيطة ، هى صورة الميكروبات ، أو الحيوانات الوحيدة الخلية ، وأن هذه الميكروبات هى التى حولت عناصر الأرض ، من صورة غير عضوية إلى صورة عضوية ، صارت بها الحياة ممكنة ، وأن هذه الميكروبات تجمعت فيما بعد ، لتكون المخلوقات المتعددة الخلايا ، والأكثر تعقيداً ، وأن السلسلة الحيوانية بلغت قمة تعقيدها .. فى الإنسان[٢] .

ورأينا أن نقطة ضعف العلم الحديث فى هذه المسألة ، تكمن فى المنظور (المادى) ، الذى عالج به القضية برمتها، فهى « تقوم على إنكار (الخلق)، و بالتالى على إنكار وجود (الله) .

ومن ثم يتهدم بنيانها ، بتهــــدم الأساس الصحيح ، الذى يجب أن تقوم عليه »[٣] .

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : الاســلام والكون (مرجع ســابق) ، ص ٤٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥١ .

كذلك قلنا — فى الكتاب السابق من السلسلة — إن الإسلام يقيم نظريته الكونية كلها، على أساس (خالق) الله سبحانه للسموات والأرض .. وللإنسان .. خلقاً[1] — بينما يقيم العلم الحديث نفس النظرية، على أساس (التطور المادى) الصرف .. لذلك كله .

وقد (خلق) الله سبحانه الإنسان خلقاً ، حينما شاءت إرادته سبحانه خلقه .. وقد خلقه خلقاً كلياً ، ولم يخلقه أجزاء منفصلة ، ومن ثم كانت نظرة الإسلام (الكلية) إلى الإنسان .. فى مقابل نظرة العلم (الجزئية) إليه ، كما رأينا فى الفصول السابقة من الكتاب .

ويلخص الأستاذ مقداد يالجن القصة من بدايتها، تلخيصاً بسيطاً ، ولكنه رائع حقاً ، بقوله :

« ذكر الله سبحانه أنه خلق الإنسان أطواراً (ما لكم لا ترجون لله وقاراً ؟وقد خلقكم أطواراً ؟) .

وكان أول طور هذا الخلق أن بدأ به من الأرض ، فأخرج الإنسان من هذه الأرض ، كما أخرج النبات (والله أنبتكم من الأرض نباتاً) » .

« وقال تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) .

ثم اختلط بالماء ، فأصبح الماء عنصراً فى تكوين الإنسان (والله خلق كل دابة من ماء) . (وجعلنا من الماء كل شىء حى) . فأصبح التراب بذلك طيناً ، ومن هنا قال تعالى (الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

وبذلك استخلص من الطين خلاصته (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) . ثم مكثت هذه السلالة ، حتى أصبحت طيناً لازباً (إنا خلقناكم من طين لازب) . ثم بعد ذلك صب هذا الطين اللازب فى قالب معين ، وصوره فى صورة إنسان ، ثم تركه حتى يبس ، وأصبح صلصالا ، يرن كالفخار (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون) » .

« وبعد أن سواه ، وصوره بتلك الصورة ، نفخ فيه الروح ، وأمر الملائكة بالسجود له (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى، فقعوا له ساجدين). (ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة : (اسجدوا لآدم) .

وبعد خلق آدم بالأطوار السابقة ، خلق حواء زوجته،من نفسه ، (وهو الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، ليسكن إليها) » .

« وعن طريق التزواج بين آدم وحواء ، جاء ذريته (وجعل منها زوجها ليسكن إليها، فلما تغشاها حملت حملاخفيفاً ، فمرت به ، فلما أثقلت دعوا الله ربهما ، لئن آتيتنا صالحاً ، لنكونن من الشاكرين) .

وبهذه الطريقة ، تناسل بنو آدم وكثروا »[1] .

فإرادة الله سبحانه،سبقت خلق الإنسان،وإن كان الماديون المعاصرون، ينكرون الإرادة والخلق معاً ، وهذه هى نقطة اختلافهم الأولى مع الإسلام .

ومر الإنسان — فى خلقه — بعد هذه الإرادة — بمراحل ، حددها

---

(١) مقداد يالجن : الاتجاه الأخلاقى فى الاسلام (دراسة مقارنة) — الطبعة الأولى — مكتبة الخانجى بمصر — ١٣٩٢هـ — ١٩٧٣م ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

القرآن الكريم ، فى خلقه الله له من طين ، ثم تسويته له ، ثم نفخه فيه من روحه ، ثم أمره الملائكة بالسجود له .

وينبهنا المرحوم عباس العقاد هنا ، إلى أن (التسوية) ، (والنفخ) ، وغيرهما من الألفاظ الواردة هنا ، « ليست تسوية باليدين ، على مثال تسوية المصورين الآدميين ، وإنها ليست نفخاً بالأفواه ، كما ينفخ الإنسان الهواء فى الطين أو غير الطين ، وأن الروح ليست بالروح الإنسانية » ، وإلى أن « كل ما يجوز أن نفهمه من معنى النفخ ، أنه بث قوة الحياة فى الطين »[1] .

ثم يخرج من هذا كله بنتيجة واحدة ، وهى أن « على المسلم أن يؤمن بأن الله تعالى بث روح الحياة فى الطين ، وسوى الطين سلالة ، خرج منها آدم عليه السلام ، ولكن ليس لأحد أن يفرض عليه كيفية للتسوية ، والنفخ والخلق ، تلغى كل ما عداها ، وأن يقرر للتسوية والنفخ والخلق وقتاً محدداً ، باللمحة أو اليوم أو الدهر ، ويكون بمقدار واحد ، ولا يكون بغير ذلك المقدار »[2] .

وبعبارة أخرى : إنها الإرادة الإلهية أن يخلق الله الإنسان .. وكفى .

وهذه (الإرادة الإلهية) ، التى خلقت الإنسان على نحو معين ، هى التى كرمته يوم خلقه ربه ، وكرمته يوم أمر الله سبحانه ملائكته بالسجود له ، كما سنرى . وهو تكريم له أسبابه فى الخلق ذاته ، وهو ما امتاز به آدم — بإرادة ربه خالقه — على سائر الخلق :

---

(١) عباس محمود العقاد : ما يقال عن الاسلام — دار الهلال — ١٩٧٠ ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٣ .

— « وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إنى أعلم مالاتعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء ، إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك ، لا علم لنا إلا ماعلمتنا ، إنك أنت العزيز الحكيم . قال : يا آدم ، أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال : ألم أقل لكم : إنى أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ »(١) .

فالإنسان ، بطينه الذى صيغ منه كيانه ، وبالنفخ الإلهى فيه ، خلق مكرماً من الله ، بحكم ذلك (الاستخلاف) الذى كرمه به ربه يوم خلقه .

وهو — عند الله خالقه — أكثر تكريماً من كل خلق الله ، حتى من الملائكة المقربين أنفسهم ، بدليل أمر الله سبحانه لملائكته أن تسجد له .

وهو مكرم على هذا النحو عند الله ، لأنه يمتاز عن خلق الله جميعاً ، بالمعجزة الإلهية الكبرى فيه ، وهى . . عقله ، الذى (وعى) الأسماء كلها ، كما علمه ربه .. وأنبأ بما وعى وعلم .

وهو — بهذا العقل — كما سنرى — أقدر على القيام بمهام الاستخلاف وتبعاته .. حتى من الملائكة المقربين أنفسهم .

الذات الإنسانية فى الاسلام :

رأينا فى الفصول السابقة ، كيف (مزق) العلم الحديث الإنسان ، وقسمه إلى (مناطق نفوذ) ، لا تتفق مع طبيعته ، بدليل عودته فى النهاية ، وتجميعه

(١) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ٣٠ — ٣٣ .

الفلك (الإرب) ، ليدرس من خـــلالها (الشخصية) الإنسانية ، فى سلوكها العام .

ولم يقع الإسلام فى نفس الخطأ ، وإنما جعل (الذات الإنسانية) ، أو (الشخصية) ، منطلقه فى نظرته إلى الإنسان ، ومن خلال هذه (الذات) أو (الشخصية) ، نظر بعد ذلك — عند الضرورة — إلى (التفصيلات) ، فهو « ينظر إلى الإنسان ، كوحدة غير مجزأة »[(١)] — على نحو ما سنرى .

والمادة الأولية للانسان، هى (الطين) ، كماسبق .

ومن ثم احتل (جسد) الإنسان فى الإسلام مكانة خاصة ، لا ينكرها إلا مغالط ، أو جاهل بالإسلام — كما سنرى .

فالجسد ، أو الطين ، هو الوعاء الذى تصب فيه (الذات) الإنسانية ، وبقدر صلاح الوعاء ، تكون سلامة محتوياته .

وفى هذا الطين ، كان (النفخ) الإلهى ، الذى اكتملت به صورة الإنسان ، كما سبق .

ومن ثم احتل (العقل)[(٢)] و (الروح) فى الإسلام، مكانة خاصة أيضاً ، لا ينكرها إلا مغالط ، أو جاهل بالإسلام ، أيضاً — كما سنرى .

---

(١) الدكتور محمد فاضل الجمالى : تربية الانسان الجديد (مرجع سابق) ، ص ٩٨ .

(٢) ونحن هنا نختلف تماما مع علم النفس الحديث ، الذى جعل (الجهاز العصبى المركزى) أو (المخ) ، هو مقر العقل ، اذ أن مخ بعض الحيوانات أكبر حجما وأكثر تجاعيد من مخ الانسان — كما هو الحال فى الخرتيت — ارجع — على سبيل المثال — الى :
— مصطفى محمود : لغـز الحياة — الطبعة الخامسة — دار العـودة — بيروت — ١٩٧٤ .
ولذلك فنحن نرى ما قلناه من قبل من أن الذكاء أمر يتصل بالروح ، وبهـذه (النفخة الالهيـة) فى الوعاء الجسـدى .. ارجع الى ص ٩٨ ، ٩٩ من الكتاب ..

ومن أجل الطين ، كان فى الإنسان « حيوانية ، وفيه نباتية ، وفيه جمادية »[١] ، كالحيوان والنبات والجماد ، سواء بسواء ، ومن أجل (النفخة الإلهية) ، كان فى الإنسان سمو وارتفاع ، كسمو الملائكة وارتفاعها ، بل يزيد[٢] .

ومـــن اجتماع الطين والنفخة الإلهية ، « خلق الله هذا الإنسان جسماً كثيفاً ، وروحاً شفافاً ، جسماً يشده إلى الأرض ، وروحاً يتطلع إلى السماء ، جسماً له دوافعه وشهواته ، وروحاً له آفاقه وتطلعاته ، جسماً له مطالب أشبه بمطالب الحيوان ، وروحاً له أشواق كأشواق الملائكة » ، « فلم تغفل عقيدة الإسلام ، الروح من أجل الطين ، ولم تغفل الطين من أجل الروح ، بل زاوجت بينهما ، فى وحدة متناسقة ملتئمة ، وأعطت الروح حقه ، والجسد حقه ، فى غير إفراط ولا تفريط »[٣] .

ومن ثم ، كان ما ذهب إليه المرحوم عباس العقاد ، من أنه « لا يجوز للمؤمن بالكتاب ، أن يبخس للجسد حقاً ، ليوفى حقوق الروح ، ولا يجوز له أن يبخس للروح حقاً ، ليوفى حقوق الجسد ، ولا يحمد منه الإسراف فى مرضاة هذا ، ولا مرضاة ذاك » ، « والقرآن الكريم ينهى عن تحريم المباح ،

---

(١) فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى : القضاء والقدر ، معجزات الرسول ، اعجاز القرآن ، مكانة المرأة فى الاسلام — اعداد وتقديم أحمد فراج — الطبعة الثانية — دار الشروق — سبتمبر ١٩٧٥ ص ٤٠ .

(٢) وهو سمو يزيد ، لأن الانسان — من خلال عقله — قادر على أن يفعل — بنفسه — ما لا تفعله الملائكة ، ثم ان عليه أن يقيم — من خلاله — توازنا بين حاجات روحه وحاجات جسده ، وهو ما لا تضطر الملائكة اليه .

(٣) الدكتور يوسف القرضاوى : الايمان والحياة — الطبعة الثانية — مكتبة وهبة — ١٩٧٣ ، ص ٧٦ ، ٧٧ .

كما ينهى عن إباحة المحرم »(١).

ونستطيع أن نرى هذا (التكامل)، فى النظرة الإسلامية إلى الإنسان، فى أجلى صورها ، فى القرآن الكريم ، فى كل سورة من سوره ، على النحو الذى رأيناه فى (خلق الإنسان) ذاته — كما سبق .

ويعبر القرآن الكريم عن هذه (الذات الإنسانية) بالنفس ، فى مثل قوله تعالى :

— « من أجل ذلك ، كتبنا على بنى إسرائيل ، أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعاً ... »(٢) .

— « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت ... »(٣) .

— « كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة .. »(٤) .

— « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها عدل ، ولا تنفعها شفاعة ، ولا هم ينصرون »(٥) .

و (النفس) — فى الإسلام — تشمل الجسد والعقل والروح جميعاً ، ولا تقتصر على شعور الإنسان أو لا شعوره فقط ، كما يحدث فى علم النفس الحديث ، الذى نراه يتناقض مع نفسه ، فيتحدث عن الشعور أو اللاشعور ،

---

(١) عباس محمود العقاد : الانسان ، فى القرآن الكريم — دار الاسلام — القاهرة — ١٩٧٣ ، ص ٢٩ .
(٢) قرآن كريم : المائدة — ٥ : ٣٢ .
(٣) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ٢٨٦ .
(٤) قرآن كريم : آل عمران — ٣ : ١٨٥ .
(٥) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ١٢٣ .

ثم يتم حديثه عنهما من مناطق أخرى ، خارج الشعور أو اللاشعور ، يستمد منهما (دوافع السلوك) ، كالغرائز ، وهى كلها حاجات جسدية خالصة — كما سبق فى الفصول الأولى من الكتاب .

وهو تناقض لم يقع فيه الإسلام، بطبيعة الحال .

أما (الروح) ، فهى — فى القرآن الكريم — ذلك الرباط المقدس ، الذى يربط الإنسان بربه وخالقه ، كما رأينا فى الفصل الخامس[1] .

وأما (القلب) ، فإن استخدام القرآن الكريم له ، يدل على هذا (التكامل) فى نظرته إلى الانسان ، بشكل لافت للنظر ، فالقرآن الكريم يستخدمه بمعنى الشخصية ، أو النفس :

— « الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ، كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار »[2] .

— « فبما رحمة من الله لنت لهم ؟ ولو كنت فظاً غليظ القلب ، لانفضوا من حولك .. »[3] .

— « يوم لاينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم »[4] .

— « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ؟ »[5] .

---

(١) ارجع الى ص ٩٦ ، ٩٧ من الكتاب .
(٢) قرآن كريم : غافر — ٤٠ : ٣٥ .
(٣) قرآن كريم : آل عمران — ٣ : ١٥٩ .
(٤) قرآن كريم : الشعراء — ٢٦ : ٨٨ ، ٨٩ .
(٥) قرآن كريم : الرعد — ١٣ : ٢٨ .

والقرآن الكريم ، عندما يستخدم (القلب) للدلالة على (الشخصية) ، إنما يستخدمه من باب المجاز وحده ، حيث العلاقة بين القلب والشخصية علاقة سببية ، فالقلب هو (معمل تكرير) الدم في الجسد ، وبالتالي فهو مصدر الطاقة فيه ، وأى خلل فيه أو فساد ، يؤدى — بالضرورة — إلى خلل وفساد ، في الكيان الإنساني كله .

ثم إن القلب ، هو أنبل عضلة من عضلات الجسم كله ، فهي العضلة التي لا تتوقف عن العمل لحظة ، وهي في عملها (تأخذ وتعطى) ، ولا تختزن ، وهي تأخذ الفاسد من الدم وتعطيه صالحاً — فكأن في الإشارة إليه إشارة إلى (النبل) الذي يجب أن يتصف به الإنسان . . الخليفة ، حتى يستطيع أن يقوم بمهام الاستخلاف .

ولذلك ، لم يكن غريباً أن يستخدمه القرآن الكريم — في بعض المواضع — للدلالة على العقل والفهم :

— « أفلم يسيروا في الأرض ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور »(١) .

— « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد »(٢) .

— « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون

---

(١) قرآن كريم : الحج — ٢٢ : ٤٦ .

(٢) قرآن كريم : ق — ٥٠ : ٣٧ .

بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »[١] .

وقد لفت هذا (التكامل) فى نظرة الإسلام إلى الإنسان ، المرحوم عباس العقاد ، حيث يرى أن «(الذات الإنسانية)» هى « جملة هذه القوى ، من النفس والعقل والروح » ، « تدل كل قوة منها على (الذات الإنسانية) فى حالة من حالاتها ، ولا تتعدد (الذات) الإنسانية ، بأية صورة من صور التعدد ، لأنها ذات نفس ، أو ذات روح ، أو ذات عقل ، فإنما هى إنسان واحد ، فى جميع هذه الحالات » .

و « الذات الإنسانية أعم من النفس ، ومن العقل ، ومن الروح ، حين تذكر كل منها على حدة » ، « فالإنسان يعلو على نفسه بعقله ، ويعلو على عقله بروحه ، فيتصل من جانب النفس بقوى الغرائز الحيوانية ، ودوافع الحياة الجسدية ، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم ، وعلمه عند الله . . وحق العقل أن يدرك ما وسعه من جانبه المحدود ، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها المطلق ، إلا بإيمان وإلهام »[٢] .

ثم يأتى العلم الحديث ، فيؤكد هذا التكامل القرآنى فى حياة الإنسان ، حيث نجد العلاقة قوية « بين التطور الجسمى والتطور العقلى »[٣] ، و « يؤثر الجسم فى الحياة العقلية عن طريق الفعل المباشر للدم ، فالتغيرات الطارئة على

---

(١) قرآن كريم : الأعراف — ٧ : ١٧٩ .

(٢) عباس محمود العقاد : الانسان ، فى القرآن الكريم (مرجع سابق) ، ص ٣٧ — ٤٠ .

(٣) الدكتور عبد العزيز القوصى : أسس الصحة النفسية (مرجع سابق) ، ص ٣٠ .

حالة مايصل إلى المخ من الدم ،أو ما يحمله الدم من مركبات، تصل إليه عن طريق الأدوية » ، « أو المكيفات »، أو المركبات التى تفرز فى الدم مباشرة بواسطة الغدد » ، « كلها تؤثر فى الحالة العقلية للفرد ، تأثيراً واضحاً معروفاً »(١) .

ولم يكن غريباً، أن يلاحظ ألكسيس كاريل،قوة العلاقة بين الطاقة الجنسية مثلا، وبين الذكاء وقوة الروح، «فالغدد الجنسية وظائف أخرى،غير دفع الإنسان لإتيان عمل ، من شأنه حفظ الجنس — فهى تزيد أيضاًمن قوة النشاط الفسيولوجى والعقلى والروحى . . فليس هناك خصى أصبح فيلسوفاً عظيماً ، أو عالماً خطير الشأن ، أو حتى مجرماً عاتياً »(٢) . « إن للخصية ، أكثر من أى غدة أخرى ، تأثيراً عميقاً على قوة العقل وصفته » . « ويبدو أن العقل يحتاج إلى وجود غدد جنسية حسنة النمو ، وكبت مؤقت للشهوة الجنسية ، حتى يستطيع أن يبلغ منتهى قوته »(٣) .

ولا يقف الأمر عند حد العلاقة بين الجسم والعقل ، بل يتعدى ذلك إلى العلاقة بين كل منهما — أو بينهما مجتمعين — وبين قوة الروح ، أوالخلق ، « فالنفس الصحيحة تصدر عنها أخلاق صحيحة ، والجسد الصحيح يصدر عنه عمل صحيح » ، و « القوى الذى يفعل مايشاء ليس بصحيح ، لأن النفس الصحيحة، لا تنطلق كما تنطلق الآلة التى تملؤها قوة البخار ، فتصدم وتهشم ، وتخبط خبط عشواء ، حيث تحملها قوتها العمياء ...

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٢) ألكسيس كاريل (مرجع سابق) ، ص ١٠٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

لا صحة بغير ضابط » ، « و كل ضابط معناه القدرة على الامتناع ، ورد النفس عن بعض ماتشاء ، وليس معناه القدرة على العمل فحسب » ، و « مصدر الأخلاق الجميلة هو (عزم الأمور) ، كما سماه القرآن الكريم »(١) .
« فالصبر والصدق ، والعدل والإحسان ، والمحاسنة ، والأمل والحلم والعفو ، هي مثال الكمال الذى يطلبه لنفسه من يزع نفسه ، ويختار لها أحسن الخيرة ، ويأبى لهـا أن يهبط بها مكاناً ، دون مكان الجميل الكامل ، من الخصال ومن الفعال » .

« وهذا الأدب عينه ، هو الذى يملى على الكبير أن يتواضع للصغير ، ويملى على الصغير أن يحفظ مكانة الكبير ، ويملى على الكبار والصغار أجمعين ، أن يتجنبوا الإساءة ، ويتعمدوا المحاسنة ، ويأخذ بعضهم بعضاً بالرفق والأدب وطيب العشرة ، وإحسان المقال »(٢) .

وهكذا نجد (الذات الإنسانية) — فى الإسلام — محصلة لقوى الإنسان مجتمعة ، جسده وروحه ، أما العقل ، فهو تابع لإحدى المنطقتين ، فهو — فى علم النفس الحديث — كما سبق — تابع للجسد(٣) ، بما فيه من أعصاب وخلايا عصبية ، وهو — فى الإسلام — كما سبق أيضاً — تابع للروح(٤) .
غير أن هذه « (الذات الإنسانية) ليست محصلة حسابية » ، لهاتين القوتين ، « وإنما هى محصلة (جدلية) » لها ، « بمعنى أننا قلما نجد ذاتين إنسانيتين

---

(١) عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية — دار الاسلام بالقاهرة — ١٩٧٣ ، ص ٢٤ ، ٢٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨ .
(٣) ارجع الى ص ٥٧ وما بعدها من الكتاب .
(٤) ارجع الى ص ٩٨ ، ٩٩ ، وهامش ص ١٣١ من الكتاب .

متشابهتين ، رغم أن (المادة الأولية) لكل منهما واحدة »(١) .

وفرق كبير بين الإنسان المؤمن ، والإنسان الكافر ، والإنسان المنافق — كما سنرى فيما بعد .

وهو فرق يقودنا — بالضرورة — إلى الحديث عن الشيطان .

الشيطان والانسان :

وقد تناولنا — فى مطالع هذا الفصل — شطراً من قصة خلق الإنسان ، وتركنا شطرها الباقى، حتى يأتى موعدها ، بعد الحديث عن (الذات الإنسانية)، وتنوعها ، واختلافها من إنسان إلى إنسان . وفى هذا التنوع ، لابد من الإشارة إلى (الشيطان) ، ودوره مع الإنسان ، منذ آدم ، وحتى اليوم ، فالشيطان ، هو التفسير العلمى والعقلى الوحيد للشر الموجود فى العالم ، وبدونه (يتخبط) علم النفس الحديث تخبطاً أعمى ، فى تفسير هذا الشر الواضح فى حياة الإنسان .

وتبدأ قصة الشيطان مع الإنسان — فى القرآن الكريم — مع خلق الإنسان ذاته .

فقد خلق الله سبحانه الإنسان ، وأمر الملائكة بالسجود له ، تكريماً وتعظيماً ، لهذا المخلوق الذى اصطفاه — وحده — بالاستخلاف . ولكن

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : « التعليم مدى الحياة فى الاسلام » — المقولة الثانية من : **فى التربية المعاصرة** — الجزء الأول — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٧ ، ص ٤٩ .

— دكتور عبد الغنى عبود : « التعليم مدى الحياة فى الاسلام » — **تعليم الجماهير** — مجلة متخصصة تصدر عن الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار — العدد الثامن — السنة الرابعة — يناير ١٩٧٧ ، ص ٥٢ .

الشيطان فسق عن أمر ربه ، ورفض السجود لآدم ، وكان له منطقه فى هذا الرفض :

— « إذ قال ربك للملائكة : إنى خالق بشراً من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس ، استكبر وكان من الكافرين . قال يا إبليس ، ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ؟ أاستكبرت ، أم كنت من العالين ؟ قال : أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين »[١] .

— « .. فسجدوا إلا إبليس ، قال : أأسجد لمن خلقت طيناً ؟ »[٢] .

— « .. قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون »[٣] .

ولكن عصيان الله سبحانه جريمة كبرى ، يرتكبها كل مخلوق من مخلوقاته يعصيه ، فكيف يكون الأمر إذا كان هذا المخلوق .. أحد الملائكة المقربين ؟

ومن ثم ، كان لابد من طرد إبليس من رحمة الله :

— « قال : فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين »[٤] .

---

(١) قرآن كريم : ص — ٣٨ : ٧١ — ٧٦ .
(٢) قرآن كريم : الاسراء — ١٧ : ٦١ .
(٣) قرآن كريم : الحجر — ١٥ : ٣٣ .
(٤) قرآن كريم : ص — ٣٨ : ٧٧ ، ٧٨ .

— « قال : فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين »[١] .

ويطلب إبليس الفرصة ، فيأبى عدل الله المطلق إلا أن تكون له هذه الفرصة . وهو يحاول — من خلال هذه الفرصة — أن يثبت أن هذا الإنسان الذى أمره ربه بأن يسجدله . . ليس جديراً بكل هذا التكريم :

— « قال : رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال : فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال : فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين »[٢] .

— « قال : أرأيتك هذا الذى كرمت على ، لئن أخرتنى إلى يوم القيامة ، لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال : اذهب ، فمن تبعك منهم ، فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً . واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا »[٣] .

— « قال : ربى فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال : فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال : رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ، ولأغوينهم أجمين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال : هذا صراط على مستقيم . إن

---

(١) قرآن كريم : الأعراف — ٧ : ١٣ .
(٢) قرآن كريم : ص — ٣٨ : ٧٩ — ٨٥ .
(٣) قرآن كريم : الاسراء — ١٧ : ٦٢ — ٦٥ .

عبادى ليس لك عليهم سلطان ، إلا من اتبعك من الغاوين . وإن جهنم لموعدكم أجمعين »[١] .

ويبدأ إبليس إغواءه ضد آدم ، أول الخلق وأبيهم ، منذ اللحظة الأولى ، ويبحث عن نقطة ضعف يسلكها إلى ذاته . . حتى يجد الفرصة ، فيسلكها وينجح .

كان آدم وزوجته حواء ، ينزلان فى جنة عدن .

وفى مثل هـذه الجنة ، لا يكون المدخل الشيطانى إلى نفس آدم سوى .. الخلود .

وكان الله سبحانه قد نهى آدم — لحكمة يراها — عن الاقتراب من شجرة ، فلم هذه الشجرة بالذات ؟

إنها تصلح — هى الأخرى — أن تكون مدخلا شيطانياً إلى نفس آدم :

— « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ، ولم نجد له عزماً . وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس ، أبى . فقلنا يا آدم ، إن هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى . فوسوس إليه الشيطان ، قال : يا آدم ، هل أدلك على شجرة الخلد ، وملك لا يبلى ؟ فأكلا منها ، فبدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنـــــة ، وعصى آدم ربه فغوى »[٢] .

---

(١) قرآن كريم : الحجر ــ ١٥ : ٣٦ ــ ٤٣ .
(٢) قرآن كريم : طه ــ ٢٠ : ١١٥ ــ ١٢١ .

— « قال (الشيطان) : فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال: اخرج منها مذءوماً مدحوراً ، لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ، ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما ، وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة ، إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما : إنى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة ، بدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما : إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا ، لنكونن من الخاسرين »[1] .

ولا يهمنا هنا ما يختلف فيه المفسرون بشأن هذه الشجرة : هل هى رمز أم حقيقة ؟ وإذا إذا كانت رمزاً ، فهل هى رمز للمعرفة ، أم رمز للجنس ؟

« ولا يوجد مانع من أن تكون الشجرة هى شجرة تؤكل بالفعل ، فتؤدى إلى إطلاق الهرمونات ، واشتعال الرغبة الجنسية ، ومن ثم تلقى بآدم إلى المخالطة الجنسية ، وتكون الآية مفسرة حرفياً ومجازياً .

ولا يمكن القطع فى هذه المسائل ، فالعلم لله وحده »[1] .

ولكن الذى يهمنا ، هو أن إبليس أخطأ بعصيانه ، وأنه استحق اللعنة

---

(١) قرآن كريم : الأعراف — ٧ : ١٦ — ٢٣ .

(٢) مصطفى محمود : القرآن ، محاولة لفهم عصرى للقرآن — الطبعة الثالثة — دار الشروق — بيروت — ١٩٧٣ ، ص ٦٤ .

بتماديه فى هذا العصيان ، وأن آدم أخطأ بعصيانه ، ولكنه استحق العفو والصفح ، بندمه واستغفاره ..

وفرق بين عصيان مبيت ، عليه إصرار ، وعصيان عن غفلة ، أدى إلى توبة واستغفار .

وكان ما كان من إبليس وآدم على السواء ، عن إرادة إلهية خالصة مسبقة ،ولم تكن أحداث القصة كلها تسير على غير أساس .

وتتم فصول القصة ، بهبوط آدم وحواء إلى الأرض ، و « لم يكن هبوطهما إلى الأرض عقاباً أو تأديباً لهما ، وإنما لتنفيذ إرادة الله فى قضائه وقدره »[١] .

وبنزولهما إلى الأرض ، تبدأ ملحمة الصراع الأبدى ، بين الإنسان الذى استخلفه ربه وكرمه ، وبين الشيطان الذى تكبر عن السجود له ، استجابة لأمر الله ... أو ملحمة الصراع الأبدى ، بين الخير والشر ، لحكمة أرادها الله منذ البداية :

— « قال : اهبطا منها جميعاً ، بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم منى هدى ، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً . ونحشره يوم القيامة أعمى »[٢] .

— « قال : اهبطوا ، بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال : فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون »[٣] .

---

(١) خليل طاهر : الأديان والانسان ، منذ مهبط آدم ، حتى : اليهودية — المسيحية — الاسلام — قدم له وراجعه : فضيلة الامام الأكبر ، الشيخ عبد الحليم محمود — دار الفكر والفن — ١٩٧٦ ، ص ٦١ .

(٢) قرآن كريم : طه : ٢٠ : ١٢٢ — ١٢٤ .

(٣) قرآن كريم : الأعراف — ٧ : ٢٤ ، ٢٥ .

والإنسان — منذ آدم — ينشد الخلود .

فليكن له ما أراد ويريد ، بإرادة الله خالقه . . ولكن على النحو الذى يريده ربه ، لا على النحو الذى يريده هو .

إنه يريد الخلود ، بلا ثمن ولا مقابل ولا .. ابتلاء .

والله سبحانه يريده له على نحو أفضل ، يتفق مع ذلك التكريم الذى كرمه له يوم استخلفه ، بمقابل ... هو الابتلاء :

— « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة ، قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون »[1] .

— « كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون »[2] .

— « ولنبلونكم ، حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ونبلو أخباركم »[3] .

ومن ثم ، كان ما ذهبنا إليه فى كتابنا السابق ، من أن الابتلاء هو سنة حياة الإنسان المسلم، وأنه هو (المفتاح) إلى فهم الإسلام، واستيعاب التاريخ الإسلامى كله[4] .

---

(١) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ١٥٥ — ١٥٧ .

(٢) قرآن كريم : الأنبياء — ٢١ : ٣٥ .

(٣) قرآن كريم : محمد — ٤٧ : ٣١ .

(٤) دكتور عبد الغنى عبود : الله والانسان المعاصر (مرجع سابق) ، ص ١٤٥ — ١٥٠ .

علم النفس الاسلامى :

ينظر علم النفس الحديث إلى الإنسان على أنه (حيوان) ، أى أنه ينظر إليه من جانب واحد فيه ، هو أقل هذه الجوانب شأناً فى حياته ، على الأقل إذا قورن بجوانب حياة الإنسان الأخرى .

وهو لا يكتفى بذلك ، بل إنه يزيد عليه ، أنه (يمزق) هذا الجانب المحدود فى حياة الإنسان .. إرباً .

وإذا وجد علم النفس الحديث فى هذا الإنسان الحيوان جوانب مشرقة ، كالتضحية بالنفس ، والبذل ، والغيرية ، وغيرها ، سماها (تسامياً) .

بينما ينظر علم النفس الإسلامى — وهو حقيقة واقعة ، وليس من نسيج الخيال — إلى الإنسان على أنه إنسان وكفى . ومن ثم فهو — بطبيعته (سام) ، وليس (متساميا) .

وإذا انحرف الإنسان وراء شهواته .. فهو — فى هذه الحالة — (منهابط) — إذا صح التعبير ، ليكون مقابلا (للتسامى) فى علم النفس الحديث .

وعلم النفس الإسلامى ، ينظر إلى الإنسان على أنه « خليفة الله فى الأرض » ، وعلى أنه « قبضة من طين ، ونفخة من روح الله » ، و « فكرته ومنهجه فى أخذ الكائن البشرى بجميع خصائصه ، وجميع طاقاته ... واستغلالها كلها ، لتحقيق أهداف الدنيا .

وفكرته ومنهجه فى احترام كل طاقة ، مادامت تؤدى مهمتها ، التى فطرها عليها الله »(١) .

---

(١) محمد قطب : منهج التربية الاسلامية — الطبعة الثانية — دار الشروق ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

وقد نظم الإسلام للانسان المسلم جوانب حياته المختلفة ، وربط شخصيته كلها بالله . . وفى ضوء هذا الربط ، نظم له جوانب حياته ، مجرد تنظيم . . إن التزم به ، سار — كله — فى طريق الله ، وإن انحرف عنه ، سار — كله — بعيداً عن طريق الله . وهكذا ، « لم يجئ الإسلام ليعلم الإنسان كيف يعيش حيواناً ، وإنما جاء ليزكى غرائزه ، ويطور حيوانيته . أو جاء ليخرجه من ظلمـــة تلك الحيوانية البحتة » ، « إلى نور معرفة الله عز وجل »(١) .

ومن ثم ، إذا حارب الإسلام فى الإنسان ، فإنه لا يحارب الإنسان ذاته ، وإنما هو « يحارب الشر الذى تمثل فيه » ، « ولا يحارب هذه النفس »(٢) .

والذى يقرأ القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، يلفت نظره بشكل واضح ، اهتمامه بتنظيم حياة الإنسان الدنيا ، من عمل وكسب ، ومن طعام وشراب ، ومن زواج وطلاق ، ومن معاملات ، وأكثر من ذلك أنهما يعتبران الإنسان خطاءً بطبعه ، ولكن باب التوبة مفتوح أمامه على مصراعيه ، بشرط أن يكون لله عبداً ، مقراً لهذه العبودية ، معتزاً بها :

— « قل : ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم

---

(١) البهى الخولى : الاشتراكية فى المجتمع الاسلامى ، بين النظرية والتطبيق — مكتبة وهبة ، ص ١٥٥ .

(٢) الدكتور عبد العزيز كامل : الاسلام والمستقبل — رقم (٤٠١) من سلسلة (اقرأ) — دار المعارف بمصر — ١٩٧٥ ، ص ٦٣ .

وأسلموا له ، من قبل أن يأتيكم العذاب ، ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ، من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون »[١] .

ولقد كان هناك علماء نفس مسلمون ، لم ينظروا إلى الإنسان إلا من ... هذه الزاوية الإسلامية .

فابن عربى (ت ١٢٤٠ م) مثلا — يرى أن الإنسان « هو صورة دقيقة كاملة من الله ، وأنه لهذا خليفته على الأرض » . « والخلافة هنا كاملة ، بحيث نستطيع فى آخر الأمر أن نستبدل الخالق والمخلوق ، كلا بالآخر ، لأن التفرقة الدقيقة بينهما ، تعوز تعبير ابن عربى ، فى كثير من المواضع »[٢] .

وابن سينا (٩٨٠ — ١٠٢٧ م) يرى أن « جوهر النفس غير محتاج إلى هذا البدن ، بل هو يضعف بمقارنة البدن ، ويتقوى بتعطله . فإذا مات البدن وخرب ، تخلص جوهر النفس من جنس البدن ، فإذا كان كاملا بالعلم والحكمة والفعل الصالح ، انجذب إلى الأنوار الإلهية وأنوار الملائكة والملأ الأعلى ، انجذاب إبرة ، إلى جبل عظيم من المغناطيس »[٣] .

والإمام الغزالى (١٠٥٩ — ١١١٢ م) يرى رأياً قريباً من رأى ابن سينا ، فهو يرى أن « النفس الناطقة أو الروح » ، « جوهر روحى قائم

---

(١) قرآن كريم : الزمر — ٣٩ : ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) عبد الرحمن بدوى (مرجع سابق) ، ص ٤٣ .

(٣) الدكتور محمد جلال أبو الفتوح شرف : الله والعالم والانسان ، فى الفكر الاسلامى — من (المكتبة الفلسفية) — الطبعة الثالثة — دار المعارف بمصر — ٩٧٥ ، ص ٢٢٠ .

بنفسه ، ثابت دائم ، يبقى بعد مفارقة البدن ، ليعود إليه يوم القيامة »[١] .

« وليست النفس عنده حالة فى الأجسام ، بل هى كالمغناطيس للحديد ، فى الملازمة والانفعال ومناسبة الطبيعة »[٢] . كما يرى أن « العقل لا يتغير بالموت ، إنما بتغير البدن والأعضاء ، فيكون الميت عاقلا مدركا ، عالماً بالآلام واللذات كما كان ، لا يتغير من عقله شيء » . « ولو تناثرت أعضاء الجسم كلها ، ولم يبق إلا الجزء المدرك ، الذى لا يتجزأ ولا ينقسم ، لكان الإنسان العاقل بكماله ، قائماً باقياً . وهو كذلك بعد الموت ، فإن ذلك لا يحله الموت ، ولا يطرأ عليه العدم »[٣] .

ومن منظور (الاستخلاف) ، ينظر علم النفس الإسلامى إلى الإنسان.

ولا يتحقق (الاستخلاف) بالفعل ، إلا إذا تحققت (عبودية) الإنسان لله ، « فالقاعدة الكبرى ، التى يقيم عليها الإنسان بناءه كله : هى أن تعبد الله كأنك تراه » . « والإسلام — وحده — هو الذى يجعل العبادة عملا ، والعمل عبادة ، والذى يربط النفس والجسم ، والسماء والأرض ، والدنيا والآخرة ، كلها فى نظام »[٤] .

و (يفلسف) الدكتور عماد الدين خليل قضية العبودية هذه ، فلسفة تأخذ باللب حقاً ، فيعتبرها — وهى عبودية — قمة التحرر الإنسانى ، ومناط

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .

(٣) احياء علوم الدين ، للامام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى — الجزء السادس عشر — كتاب الشعب — ٢٨ رمضان ١٣٨٩ — ٨ ديسمبر ١٩٦٩ ، ص ٢٩٣٤ .

(٤) محمد قطب : قبسات من الرسول — الطبعة الثانية — دار الشروق ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

الاستخلاف الحق ، فنحن — فى نظره — « مجبرون على أن نولد ، ومجبرون على أن نموت ... إننا مجبرون على أن نبعث وأن نحاسب على أعمالنا ، وأن نساق إلى جنة أو إلى نار » . « إننا مجبرون على أن ننتمى إلى هذا الإقليم أو ذاك » إلخ .

« والمساحة المتبقية لممارسة حريتنا ، إنما منحت لنا ، لتميزنا عن سائر خلق الله ، وتفضيلنا على العالمين »(١) .

وهذه المساحة المتبقية لممارسة حريتنا ، هى السير — الاختيارى — فى طريق عبادة الله . « وليس مفهوم العبادة هنا ، مساحة ضيقة ، لا تتجاوز دائرة (الشعائرية) ، و (الاتصال الروحى) بالله ... إنه تجربة حياة كاملة ، يتوازن فيها الأخذ والعطاء »(٢) .

و « ثمة ظاهرة أساسية ، يتميز بها النشاط التعبدى فى الإسلام ، ذلك أنه لا يقتصر على فترات متقطعة من الزمن ، أو أماكن محددة من العالم ، وإنما ينساح ، لكى يشمل كل الأماكن والأزمان » .

« إن التعبد — بهذا المعنى — يمتد إلى كل مساحات الحياة البشرية ، الظاهرة والخفية ، الخاصة والعامة ، الفردية والجماعية ، المادية والروحية ، تماما كما تمتد الدماء ، وتسرى فى أوصال الجسد البشرى وخلاياه »(٣) .

---

(١) د. عماد الدين خليل : « فى التفسير الاسلامى للتاريخ : المسألة الحضارية » — **المسلم المعاصر** — مجلة فكرية ، تعالج شؤون الحياة المعاصرة ، فى ضوء الشريعة الاسلامية — العدد التاسع — (المحرم — صفر — ربيع الأول ١٣٩٧ هـ — يناير — فبراير — مارس ١٩٧٧ م) ، ص ١٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢١ .

إن (العبودية) لله « هى قمة (التحرر) الإنسانى ، لأن هذه العبودية لله — لو كانت صادقة — لابد أن (تحرر) الإنسان من كل حاجة من حاجات الدنيا ، حتى ما يعتبر أساسياً من هذه الحاجات ، كلقمة العيش » . « وليس من قبيل الصدفة ، أن يقف الأنبياء والمرسلون — عليهم السلام — فى عصور مختلفة ، وأماكن متعددة ، عزلا من السلاح ، فى وجه جبابرة أشداء ، معهم المال والرجال ، فإذا بسلاح الإيمان بالله ، والإحساس العميق بالعبودية له ، يكون فى قلوبهم أقوى من السلاح المادى ، فى أيدى الجبارين والطغاة ، وأنصارهم وأعوانهم »[١] .

ويقسم علم النفس الحديث الناس الى أسوياء وشواذ .

ويكاد كل الناس أن يكونوا فى نظره شواذ ، ويكادون أن يكونوا فى نظره أيضاً أسوياء ، كما يكادون أن يكونوا مجانين أو عقلاء — مرضى نفسيين أو أصحاء[٢] .

وعندما تختل المقاييس .. يكون الاضطراب ، هو الثمرة الوحيدة .

ولكن المقياس الإسلامى لتقسيم الناس واضح المعالم محدد ، ومن ثم فلا خلل فيه ولا اضطراب .

فالناس — فى الإسلام — واحد من ثلاثة ، استهل بهم القرآن الكريم أول سورة البقرة — أطول سور القرآن ، وأولاها بعد الفاتحة ، وفصل فى الحديث عنهم تفصيلا رائعاً ، وهؤلاء الثلاثة هم :

١ — المؤمن .　　　٢ — الكافر .　　　٣ — المنافق .

---

(١) الدكتور عبد الغنى عبود : « العبودية لله ، والتحرر الانسانى » — منبر الاسلام — يصدرها المجلس الأعلى للشئون الاسلامية — السنة ٣٥ — العدد ١ — المحرم ١٣٩٧ — يناير ١٩٧٧ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٢) ارجع الى ص ٨٣ وما بعدها من الكتاب .

والمؤمن هو أكثر الناس — على الإطلاق — إحساساً بالعبودية لله ، وأكثرهم — على الإطلاق كذلك — تكاملا وتوازناً ، فى حياته الخاصة والعامة ، وذلك لأنه لا انفصال لديه بين كيانه الفيزيقى وكيانه الأثيرى ، ومن ثم فإنه لابد أن يكون « سوياً ، ظاهره كباطنه » ، « لأنه لا يتعامل مع الناس ، وإنما يتعامل مع الله ، الذى لا تخفى عليه خافية ، فى الأرض ولا فى السماء » ، فهو يعامل « الناس بشكل واحد ، وبنظام واحد »(١) .

ومن ثم كان ما أشرنا إليه فى أماكن مختلفة من قبل فى هذا الكتاب، وما أشرنا إليه من قبل ، فى أماكن مختلفة ، من كتب هذه السلسلة ، من أن « أكثر الناس توافقاً مع بيئتهم ، وتكيفاً مع مجتمعهم ، هم أكثر الناس اهتماماً بعقائدهم الدينية ، وإقامة لشعائرهم ، ومراعاة لطقوسهم ، وهكذا ندرك أثر الدين على التوافق النفسى ، القائم بين الفرد ، وبين المظاهر المتغيرة ،لبيئته المحيطة به »(٢).

والمؤمن يحس إحساساً عميقاً بعبوديته لله ، وهو يستشعر الله سبحانه فى كل حالاته ، ومن ثم فهو مطمئن فى حياته الدنيا ، لايتطرق القلق إلى قلبه ، مهما كانت دواعى هذا القلق وأسبابه . وإحساس المؤمن العميق بالله،

---

(١) فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى : مقومات الوجود لأى عصر ، من خلال سورة العصر — المطبعة السلفية ومكتبتها ، ص ٣٢ .

(٢) دكتور فؤاد البهى السيد : الأسس النفسية للنمو (مرجع سابق) ، ص ٤١٩ . وارجع كذلك الى :

— دكتور حامد عبد السلام زهران : علم نفس النمو (الطفولة والمراهقة) (مرجع سابق) ، ص ٣٩٥ .

يقيم فى نفسه (مصالحة) بينه وبين الكون ، و (مصالحة) بينه وبين الناس ، حتى ولو كانوا له أعداء .

إنه (يرثى) للحاقدين عليه ، والمؤذين له ، ولا يعرف (الحقد) سبيلا إلى نفسه ، على هؤلاء ولا هؤلاء .

ولن أجد خيراً من التعبير القرآنى نفسه فى وصف هؤلاء المؤمنين :

— « وعباد الرحمن ، الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلاماً . والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً . والذين يقولون: ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، إن عذابها كان غراماً . إنها ساءت مستقراً ومقاماً . والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا، وكان بين ذلك قواماً. والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا يزنون... والذين لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراماً . والذين إذا ذكروا بآيات ربهم ، لم يخروا عليها صماً وعمياناً . والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماماً »[1] .

إنهم يملئون الأرض من حولنا . . يملئونها رحمة وحباً وطمأنينة ... وسمواً .

وهم يعرفون الرسالة ، التى من أجلها خلقوا فى الحياة ، وهم يقومون بهذه الرسالة .. فى إصرار لا يعرف الضعف أو الخور .

ولو خلا مجتمع من هؤلاء المؤمنين .. لخلا من كل أسباب الخير .

(١) قرآن كريم : الفرقان — ٢٥ : ٦٣ — ٧٤ .

والجنة التى طرد منها آدم ـ بخطيئته ـ باقية لهؤلاء ، لا لغيرهم ، وفى هذه الجنة يكون خلودهم :

— « قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم... أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس ، هم فيها خالدون »(١) .

أما الكافر .. فهو أكثر الناس بعداً عن طريق الله ، وصداً عن سبيله .

وقد يكون هذا البعد ، وذلك الصد ، انخداعاً بمال ، أو غروراً بسلطان ، أو انخداعاً بأفكار براقة ، كتلك الأفكار التى تسيطر اليوم على الشيوعيين والوجوديين والفوضويين والعبثيين وغيرهم .

وأياً كان سبب البعد والصد ، فإن هذا الكفر يبعد الإنسان عن سر وجوده ، وهو الله سبحانه ، ومن ثم يقع — فى النهاية — (أسير) العبودية لغير الله — للمال أو للشهوة ، أو لإنسان آخر .

وهذا (الأسر) نفسه ، يجعل الإنسان يعيش فى حياته ضالا ... قلقاً .

ولم يكن غريباً — لذلك — أن يتهاوى الإنسان المعاصر ، رغم تقدمه المادى ، واقتداره العلمى ، إلى حضيض . « لقد بدأ الإنسان يسيطر على الكون ، ولكنه مازال عاجزاً عن السيطرة على نفسه » . « إن إنسان القرن العشرين شمشون الجسد .. قدم على الأرض ، وقدم على القمر .. ولكنه قزم الروح ، مرهق العقل ، يمكن أن يدمر نفسه فى غرور أحمق ، دون أن يدرى »(٢) .

---

(١) قرآن كريم : المؤمنون ـ ٢٣ : ١ ـ ١١ .
(٢) مصطفى محمود : لغز الحياة (مرجع سابق) ، ص ٩٣ .

إن « آفة المدنية الحديثة، هى هذه المادية الغليظة ، التى أحالت كل شىء فى نظر الناس إلى (أشياء) ، وجعلت معايير هذه (الأشياء) ، هو النفع المادى العاجل لها »[١] .

ولذلك أقامت هذه المدنية الغربية الحديثة « ناطحات السحاب ، وأجرت مراكب الفضاء بين الكواكب ، ووضعت قدم الإنسان على وجه القمر ، وغمرت الأسواق بألوان الرفه والترف .. ولكنها لم تدخل على مشاعر الناس وأحاسيسهم إلا القلق والحيرة ، ولم تسكب فى قلوبهم إلا الأثرة والأنانية ، ولم تثر فى تفكيرهم إلا دوافع العدوان والتسلط »[٢] .

وقد استعرضنا فى كتابنا الأول من هذه السلسلة ، كتابى ديل كارنيجى : (دع القلق وابدأ الحياة) ، و (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر فى الناس) ، ورأينا[٣] كيف أدت هذه المدنية الحديثة — فى ظل الكفر والإلحاد — إلى هم وقلق قاتل . . . وانتحار .

والهم والقلق ، اللذان يؤديان إلى الانتحار ، رغم التقدم المادى ، الذى يؤدى إلى التشبث بالحياة . . ليسا إلا نتيجة طبيعية للكفر . . . أو للبعد عن طريق الله ، وللتمرد على العبودية له . . وهو تمرد على الإنسان ذاته ، لأن الإنسان — بحكم تكوينه — مرتبط بهذا الكون ارتباطاً عضوياً ، شاء أو لم يشأ، وعلى رأس هذا الكون — بطبيعة الحال — رب عظيم ، يسبح بحمده كل المخلوقات .

---

(١) عبد الكريم الخطيب : الله والانسان (مرجع سابق) ، ص ٣٢ .
(٢) عبد الكريم الخطيب : الله ذاتا وموضوعا (مرجع سابق) ، ص ٥١ .
(٣) دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الاسلامية والأيديولوجيات المعاصرة (مرجع سابق) ، ص ١٣٧ وما بعدها .

ومن ثم فتمرد الكافرين على الله ، عمى وضلال ، لأنهم « لا يلبثون أن يحسوا مرة أخرى ، بأنهم محرومون من الطمأنينة والسعادة والاستقرار .

وهذه الحالة ، التى تنعدم فيها الطمأنينة والاستقرار ، لدى القلوب المحرومة من رحمة الله ، ليست مسألة أيام هذه الحياة المؤقتة وسنيها . وإنما هى أهم من ذلك بكثير .

إنها مسألة أزلية وأبدية ، تتمثل فيها آثار الحياة المعتمة الحالكة ، التى يقف على حافتها هؤلاء الأصحاب .

إنها البادرة الأولى لحياة الخلق الأبدية ، التى سوف يواجهونها بعد موتهم دون شك .

إنها أجراس التنبيه الأولى فى حياتهم ، تنذرهم بالأحوال الرهيبة ، والظروف المروعة ، التى سوف تمر بها أرواحهم .

وهى دخان من الجحيم ، الذى لابد لهم أن يخلدوا فيه »[١] .

وأما المنافق ، فهو أشد ظلماً لنفسه ، وأكثر تفسخاً وتميعاً من الكافر ، وذلك لأنه يعيش بكيانه الفيزيقى مع المؤمنين ، ويعيش بكيانه الأثيرى مع الكفار .

ذلك أن الكافر له خط واحد واضح ، شأنه فى ذلك شأن المؤمن ، أما المنافق ، فليس له خط واضح محدد .

---

(١) وحيد الدين خان : الاسلام يتحدى (مرجع سابق) ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

إن المنافقين يعرفون الله ، ولكنهم يعرفونه ليحققوا — من خلاله — ما يشاءون فى حياتهم الدنيا ، ومن ثم فإنهم (يعبدون الله على حرف) ، على حد التعبير القرآنى الجميل عنهم :

— « ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ، ذلك هو الضلال البعيد . يدعو لمن ضره أكثر من نفعه ، لبئس المولى ولبئس العشير »(١) .

ولنعد إلى سورة البقرة ، لنرى : كيف فصل القرآن الكريم فى الحديث عنهم :

— « ومن الناس من يقول : آمنا بالله وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم ، وما يشعرون . فى قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضاً ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم : لا تفسدوا فى الأرض ، قالوا : إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون .. »(٢) .

وتستمر الآيات الأولى من القرآن الكريم فى وصف حالهم . . وتعرج الآيات التالية فى بقية سور القرآن عليهم بين الفينة والفينة . . لأنهم — فى الإسلام — أشد خطراً من الكفار أنفسهم ، فهم بمثابة (طابور خامس) بين صفوفه ، وهم « عالة على المجتمعات فى السراء ، وسوس ينخر فى عظام الأمة ساعة الضراء »(٣) .

---

(١) قرآن كريم : الحج — ٢٢ : ١١ — ١٣ .
(٢) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ٨ — ١٢ .
(٣) عبد الحميد كشك : بناء النفوس ، وأثره فى التربية — ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م ، ص ٢٥ .

ولم يكن غريبـــاً ، أن يكون هؤلاء المنافقون (فى الدرك الأسفل من النار) :

— « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعاً ... إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . . . إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً »(١) .

وإذا كان المنافقون أسوأ حالا — عند الله — من الكافرين ، فهل هم الآن من وراء النكسات المتتالية ، التى أصيب بها المسلمون المعاصرون ، أمام أعداء الله وأعدائهم ؟

وبعد :

فقد بدأ المهتمون بدراسة الإنسان من العلماء ، يعلنون ثورة (النظريات) الخاطئة ، فيما يتعلق بعلم النفس الحديث بصفة خاصة ، مثل أحلام ، ونظرتها إلى هذا الإنسان على أنه (حيوان) ، ثم بنى على هذه المقدمة الخاطئة نتائج .. كانت كلها — بالضرورة — خاطئة .

وقد بدأت هذه (الثورة) ، عندما وجد بعض علماء النفس ، أن الإنسان ليس (حيواناً) ، وأن اعتباره حيواناً ، قد عقد مشكلة الإنسان ولم يحلها .. ومن ثم ظهرت مدرسة علم النفس الروحى ، التى ألقت بنفسها فى جانب الروح ، وكادت تهمل الجسد إهمالا .

---

(١) قرآن كريم : النساء : ٤ : ١٣٨ — ١٤٥ .

وكرد فعل للنظريات السابقة، وقعت مدرسة علم النفس الروحي في نفس الخطأ، الذي وقعت فيه مدارس علم النفس الأخرى :

وهكذا ، صار علم النفس اليوم (جبهات قتال) واسعة ، تحتل فيها كل مدرسة من مدارسه (موقعاً) ، تصب منه (نيرانها) على بقية المدارس — أو المواقع .

وقد رأينا — في الفصل السابق — ما قال به بعض علماء المسلمين في موضوع النفس البشرية ، كابن عربي ، وابن سينا ، والإمام الغزالي[1] .

وليس فكر هؤلاء الثلاثة — كما استعرضناه — إلا مجرد نموذج ، نرى منه كيف يفكر الغربيون في موضوع الإنسان ، وكيف يفكر المسلمون ، ونرى منه أن التفكيرين متناقضان ، لا لسبب ، إلا لأن المنظور الذي نظر — وينظر — به علماء النفس إلى الإنسان ، مناقض تماماً للمنظور الذي نظر به العلماء المسلمون إليه .

وقد بدأت على الساحة العربية والإسلامية جهود طيبة ، للعودة إلى الإسلام ، في مختلف مجالات الحياة ، وكان لعلم النفس من هذه الجهود نصيبه .

ومن هذه الجهود — على سبيل المثال — لا الحصر — الجهد الذي قام به الدكتور سيد أحمد عثمان ، رئيس قسم علم النفس التعليمي ، في كلية التربية جامعة عين شمس ، في دراسته عن برهان الإسلام الزرنوجي ، المتوفى سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥ م) ، في ضوء كتابه (تعليم المتعلم ، طريق التعلم) ، والتي أثبت فيها أن الزرنوجي قد سبق علماء النفس المحدثين ، إلى (حوافز)

(١) ارجع الى ص ١٤٨ ، ١٤٩ من الكتاب .

أو (دوافع) للتعلم ، لم يضع علم النفس الحديث يده عليها بعد ، رغم أن الزرنوجي كان يعيش، فى بداية انهيار الحضارة الإسلامية ،والعلم الإسلامى .

ومن هذه الدوافع أو الحوافز ، « صدق التوكل » ، الذى « يؤدى إلى توفير الجهد الانفعالى والعقلى ، بل والبدنى ، المبذول فى الاهتمامات و التعلقات المتفرقة ، ثم توجيه هذا الجهد ، وتركيزه فى التعلم »(١) — ومنها « الهمة » ، التى هى « باعث على الحركة ، بل هى فى ذاتها حركة داخلية ، تؤدى إلى حركة خارجية ، أو سلوك يتميز بالإقبال والحماسة »(٢) — ومنها « النية ، باعتبارها ظاهرة نفسية ، لها دورها فى كثير من مظاهر الحياة النفسية العقلية عند الإنسان » ، وباعتبارها « لم تحتل مكاناً بارزاً فى الفكر الغربى الحديث فى علم النفس »(٣) .

والأهم من ذلك كله ، ما لاحظه الدكتور سيد ، من أن الزرنوجي — فى فكره النفسى — يتسم « بنظرة شاملة إلى ذات المتعلم ، بل إلى الذات الإنسانية عامة ، تتميز بالاستقلال ، أى الدافعية الذاتية ، والحرية والمسئولية. والحق أن نظرته هذه إلى الذات ، مشتقة ومتسقة مع الإسلام ، وهو الإطار العقيدى الفكرى التربوى ، الذى نشأ فيه وتنفسه وتمثله ، كيان الزرنوجي ، العقلى والوجدانى »(٤) .

---

(١) دكتور سيد أحمد عثمان : التعلم ، عند برهان الاسلام الزرنوجي (المتوفى سنة ٥٩١ هـ — ١١٩٥ م) — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٦٠ ، ٦١ .

وهى ملاحظة ، لاحظناها من قبل، عند حديثنا عن الغزالى وابن سينا وابن عربى ، ورأيناها فى كتابنا السابق عن (الكون) ، عند علماء المسلمين الطبيعيين أيضاً .

وهو جهد على مشكور ، بأى مقياس يمكن أن يقاس به الجهد ، وأن يشكر .

إلا أن الأمر — فى نظرى — يحتاج إلى أكبر من هذا الجهد .

إنه يتطلب تعدى مرحلة (إحياء التراث) ، أو ابتعاثه من جديد ، والنظر إليه نظرة (عصرية) ، ثم بيان إيجابياته .. إلى (ثورة جذرية) .

ولست أقول (بالثورة) على سبيل المجاز ، بل أقول بهـــــا على سبيل الحقيقة .

فلقد نشأنا جميعاً ، فى بيئاتنا الشرقية ، كما أريد لنا أن ننشأ ، بعيدين كل البعد عن الدين ، وعن مقدساتنا وقيمنا ، وعن حقائق العلم ذاتها ، إلا إذا كانت هذه الحقائق ، قد وردت إلينا .. عبر الحدود .

وحتى ما ظهر أنه (قىء) فى كلام هؤلاء الغربيين !. لا يزال عندنا مقدساً .

ففى الوقت الذى بدأ داروين يتنحى فيه عن العرش ، الذى صنع له فى مملكة البيولوجى ، أقمنا نحن له هذا العرش فى بلادنا .. فأدخلناه ضمن مناهجنا الدراسية .

وفى الوقت الذى بدأ فرويد يصبح فيه تاريخاً يجب أن ينسى ، فى بلاد الغرب ، جئنا نحن نفرضه (بالقوة) على عقول معلمى المستقبل ، وقادة التغيير فى مجتمعنا .

وقد قلتها فى الحلقات السابقة : إن عندنا داروينيين أكثر تعصباً لنظرية داروين، من داروين نفسه، وفرويديين أكثر تعصباً لنظرية فرويد فى التحليل النفسى ، من فرويد نفسه .

ولهؤلاء الداروينيين والفرويديين ، ومن هم على شاكلتهم . . عذرهم ، فالجديد يحتاج إلى دراسة ومال وجهد ووقت ، وكل ذلك لا يتوفر فى بلادنا، إلا للفنانين والفنانات .. والراقصات ،ومن ثم يغدو (العلم الجاهز)، هو العلم المناسب للجهد والمال والوقت ، المتاح للمشتغلين بالعلم .

وهذا ما قصدته عندما قلت (بالثورة) .

ولتكن هذه الثورة شاملة : ثورة على النفس ، وعلى صبها فى قالب علمى معين . . . وثورة على نقص الإمكانيات والمال،وضيق الوقت . . . وثورة على الحرب التى يشنها العاجزون والفاشلون والكسالى ، الذين لا يريدون أن يروا جديداً يقال فى داخل بلادنا ، ما لم يكونوا هم القائلين به .. وثورة على (العفونة العلمية) ، التى يستوردها هؤلاء العاجزون الفاشلون ، وينسبونها إلى أنفسهم ، أو ينسبونها إلى أصحابها وموردها إليهم .

ولكننا — بهذه الثورة — نكون قادرين على أن ندعى أننا إلى العلم ننتسب،و بدونها لا نستطيع هذا الادعاء .

وليكن (الزرنوجى) أول الغيث ، ثم ليأت الغيث بعد ذلك مدراراً ، متمثلا فى (علم نفس إسلامى) صحيح ، ينظر إلى (الإنسان) من منظور (إسلامى) ... متكامل .

وهو عمل كبير ، يحتاج إلى جهد ضخم ، ولكن الزرنوجى نفسه حسم القضية ، بما تحدث به عن (النية) و (الهمة) . كما حل المتنبي القضية فى بيتين اثنين من شعره :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم
وتأتى على قدر الكرام المكارم

وتعظم فى عين الصغير صغارها
وتصغر فى عين العظيم العظائم

وللمسلم أن يفخر بنفسه

لهذه الخاتمة (وللمسلم أن يفخر بـ ...) دور تقوم به، فى كل كتاب من كتب هذه السلسلة ، وهو دور مزدوج ، ففيها — من ناحية — يلخص الكتاب على نحو ما ، ثم أتوجه من هذا التلخيص — بعد ذلك — من ناحية أخرى — إلى وضع الإسلام فى مواجهة (تحديات العصر) ، من وجهة النظر التى يعالجها الكتاب .

ولقد فكرت فى الاستغناء عن هـذه الخاتمة ، فى هـذا الكتاب الرابع ، لسببين :

أولهما: أن هذا الموضوع طويل، وقد تعبت تماماً فى تلخيصه، حتى يصدر على النحو الذى يبدو عليه الآن أمام القارئ ، وذلك حتى لا يزيد كتاب من كتب السلسلة، عن الحجم الذى تصدر به كتبها ، وحتى لا يزيد سعر تكلفته — بالتالى ، وحتى يظل — أخيراً — فى متناول كل يد .

ويكفى أن الفصل المكتوب فى عشرين صفحة هنا ، مكتوب فى ستمائة صفحة أحياناً فى الكتب المتخصصة ، التى عدت إليها ، لجمع المادة العلمية لهذا الكتاب .

وكنت أخشى أن تزيد هذه الخاتمة فى حجم الكتاب ، الذى تعبت — بالفعل — فى كتابته، فى أقل حجم ممكن .

أما السبب الثانى ، فهو أن المسلم فى خاتمة كل كتاب ، يفخر بموضوع الكتاب ، فقد كان فخره فى الكتاب الأول بعقيدته ، وفى الثانى بإلهه . .

ومن ثم وجب أن يفخر — هنا — بنفسه. والفخر بالنفس أمر مكروه، دينياً وخلقياً واجتماعياً، ومن كل النواحى.

ولكنى عدلت عن هذا الاستغناء عن الخاتمة، لسببين أيضاً:

أولهما: أننى لم أرد أن أضع لنفسى فى السلسلة (سابقة)، تتيح لى أن أستغنى عن هذه الخاتمة، بسبب وبغير سبب.

وثانيهما: أن الفخر بالنفس يعد مكروهاً، فى عالم يفهم الفخر بالنفس فيه على أنه تواضع، وتكبر عن الدنايا، أما فى عالم — كعالمنا المعاصر — صار الفخر بالنفس (جواز العبور) إلى وضع دولى محترم، وصارت الحقوق هى حقوق الأقوياء، والكلمة المسموعة كلمتهم، وأما الحق والفضيلة والقيم والمثل العليا، فقد صارت — فى عالم اليوم — كلمات يرددها الضعفاء والمستضعفون، إما استجداء للعطف، أو إرضاء للنفس.

صحيح أن الحرب العالمية الثانية، قد حطمت كثيراً من قيم عصر الاستعمار، الذى سبق هذه الحرب، وأن حقوق الإنسان قد أعلنت «فى ليك سكس سنة ١٩٤٥، ونص عليها ميثاق الأمم المتحدة» سنة ١٩٤٨، وأنها نصت على أن «الناس متساوون فى الحقوق والاعتبار»، «من غير تفرقة بجنس أو لغة أو دين أو رأى سياسى أو غيره»، وعلى أن «لا يسترق إنسان ولا يعذب، ولا يعامل بقسوة ولا إذلال»[1]، إلخ.

وصحيح أيضاً، أن ميثاق الأمم المتحدة، قد (مد) أو (وسع) فى هذه

---

(١) الدكتور مصطفى الرافعى: الاسلام ومشكلات العصر — الطبعة الأولى — دار الكتاب اللبنانى — بيروت — ١٩٧٢، ص ٣٣.

(الحقوق) ، فجعل منها — فى المادة (٢٦) — حق كل مواطن فى التعليم ، على أساس أن « الشخص الذى يجيد القراءة والكتابة ، يعتمد على نفسه ، ويتمتع بحرية أكبر فى تعاملاته وتحركاته، من الشخص الأمى »[١] .

إلا أن هذه الألفاظ البراقة شىء ، والتطبيق العملى لما تدل عليه، شىء آخر .

فلا زلنا — رغم الألفاظ البراقة وحقوق الإنسان والأمم المتحدة — نعيش فى عالم تحكمه (شريعة الغاب) ، ولازال عالمنا المعاصر يعيش فى (سوق النخاسة الدولية) ، وفى هذه السوق ، بيعت فلسطين لإسرائيل ، وبيعت أوربا الشرقية للاتحاد السوفيتى ، ويتم تدخل الدول الكبرى فى كل صغيرة وكبيرة من شئون الدول الصغرى .

والزعيم (المثالى) فى بلاد العالم الثالث ، هو ذلك الذى يبيع نفسه ، بأى ثمن ، لدولة كبرى .

وقد يبيع أحدهم نفسه لدولتين ، محاولا (اللعب على الحبلين) ، ولكنه يفضح ، فضيحة من تتزوج برجلين ، وينتهى أمره إلى إفلاس .

وقد يبيع أحدهم نفسه لدولة كبرى هنا ، ثم يجد الثمن أغلى هناك . . (فيرجع فى البيعة) ، وهكذا .

---

(١) الدكتور عبد العزيز القوصى : « الحوافز وشخصية الأمى » فى مؤتمر محو الأمية الالزامى » — مؤتمر بغداد لمحو الأمية الالزامى — ٨/١٥ أيار ١٩٧٦ — التقرير النهائى والتوصيات ، ومجموعة البحوث والدراسات الميدانية — الجمهورية العراقية — وزارة التربية — المديرية العامة للتخطيط التربوى (قسم التخطيط) — العدد ٨٦ — ١١٩ — ١٩٧٦ ، ص ٣٠٦ .

فالعالم اليوم سوق نخاسة كبرى .. تجارها هم (أولاد الحرة) ، ورقيقها هم (أولاد الجارية) ، شعوباً وحكومات[1] .

أما الأمم المتحدة ، فهى منظمة هذه السوق .

وكيف لا يتحول العالم إلى سوق كبرى للنخاسة ، و (أبناء الحرة) ، الذى يسيطرون على العالم اليوم ، يرون الإنسان حيواناً . . مهما كانت الزاوية التى ينظرون منها إلى هذا الحيوان ؟

وقد رأينا فى فصول الكتاب كلها ، مدى عمق هذه النظرة فى العلم الحديث ، بفروعه المختلفة ، ورأينا الاختلاف الجوهرى بين هذه النظرة .. ونظرة الإسلام إلى الإنسان ، ومن أجل ذلك — ربما — كانت تلك الحرب التى لا تهدأ .. ضد الإسلام ، فى العصر الحديث .

أفلا يكون للمسلم أن يفخر بنفسه، فى (سوق النخاسة الدولية) المعاصرة ، وبين يديه — فعلا — ما يفخر به ؟

* * *

وقد وقع تحت يدى — أخيراً — كتاب مايلز كوبلاند Miles Copeland ، رجل المخابرات الأمريكى ، مؤلف كتاب (لعبة

---

(١) (أولاد الحرة) هنا اشارة لبنى اسرائيل ، يهودا ومسيحيين ، و(أولاد الجارية) اشارة لغير الاسرائيليين ، وقد فصلنا الحديث عن هذه القضية ، فى كتابنا الثانى من السلسلة — ارجع الى :

— دكتور عبد الغنى عبود : الله ، والانسان المعاصر (مرجع سابق) ، ص ٧٧ وما بعدها .

فحركات الاستعمار والتبشير وغيرها ، لا تعد — فى نظر هؤلاء — عدوانا ، وانما هم يقومون بها كرسالة ، يقوم بها (أبناء الحرة) ، ضد الوثنيين (أبناء الجارية) ، فى كل مكان .

الأمم) ، أو (لعبة الشعوب) The Game of Nations[١]، الذى طبع عدة طبعات متتالية فى لندن ، بمعدل طبعة كل شهر أو شهرين ، فقد طبع لأول مرة فى أغسطس ١٩٦٩ ، وطبع طبعة السادسة ـ التى وقعت تحت يدى ـ فى أكتوبر ١٩٧٠ — وأغلب ظنى أنه طبع عدة طبعات أخرى بعد هذه الطبعة — والذى ترجم إلى اللغة العربية ، ونشرته دار الشروق فى بيروت سنة ١٩٧٢ (كما وصل إلى علمى) ، ولكننا حرمنا منه — انجليزياً وعربياً — بسبب ما يحويه من حقائق خطيرة ، سوف نستعرضها .

ويرى كوبلاند فى كتابه ، أن بداية اهتمام الولايات المتحدة بهذه المنطقة، تعود إلى ٢١ فبراير ١٩٤٧ ، إثر تقرير تلقته السفارة البريطانية فى الولايات المتحدة ، يشير إلى (انكشاف) دور بريطانيا فى المنطقة ، مما يعنى أن تحل أمريكا محلها ، فى الدور الذى كانت تقوم به فيها .

وبدأ الدور الأمريكى ، بتدخل أمريكا فى الانتخابات السورية، فى يوليو ١٩٤٧ ، ثم فى الصراع العربى الإسرائيلى ، فى ١٤ مايو ١٩٤٨، ثم فى انقلاب حسنى الزعيم فى سوريا فى ٣٠ مارس ١٩٤٩ .

وبدأ الدور الأمريكى فى مصر ، بعد حريق القاهرة ، فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ — مباشرة .

لقد دل حريق القاهرة فى ذلك (السبت الأسود) Black Saturday ، كما يصفه ، على أن الملكية فى مصر على وشك الانهيار ، وأن هناك فراغاً سياسياً فى مصر ، وأن هذا (الفراغ) لابد أن يسد .

وسافر كرمت روزفلت Cremit Roosevelt إلى القاهرة، لتنظيم انقلاب

(١) والى هذا الكتاب ومؤلفه ، أشار حسن التهامى فى مذكراته ، التى نشرها فى صحيفة (الأهرام) ، عن الثورة وعبد الناصر ، بوصفه (أى التهامى) شاهداً على الأحداث فى هذه الفترة ، وذلك فى عدد الجمعة ، ١٢ أغسطس ١٩٧٧ . ويتفق ما قاله التهامى إلى حد بعيد ، مع ما ذكره كوبلاند ، وهو وارد هنا .

سلمى ضد فاروق ، ثم قابل — فى مارس ١٩٥٢ — الضباط الأحرار ، عن طريق محمد حسنين هيكل[١] ، الصحفى — وقتها — بدار (أخبار اليوم) ، ومصطفى أمين[٢] ، صاحب الدار — ثم انفرد هيكل وحده — بعد نجاح الحركة الانقلابية ، بتحقيق هذا الاتصال ، بين مجلس قيادة الثورة ، وبين وليم ليكلاند William Lakeland ، المستشار السياسى للسفارة الأمريكية .

كانت الولايات المتحدة إذن على علم بالانقلاب الذى يدبر ، وعلى صلة بالذين يدبرونه ، وكانت تؤيد ذلك كله ، ملئاً للفراغ السياسى الذى كانت تعلم بوجوده ، بعد حريق القاهرة .

— وكانت الولايات المتحدة تعلم أن هذا الفراغ لا يملؤه ملك ينهار فعلا ، ولا أحزاب تورطت معه فى الفساد ، ولا حزب شيوعى ، لا يمكن أن يكون له وزن فى بلد متدين بطبعه ، كمصر ، وأن هذا الفراغ إنما يملؤه .. الإخوان المسلمون ، لأن مبادئهم — فى نظرها — «تقوم على الإسلام الصحيح ، ولأنها واسعة الانتشار ، ولأنها ناجحة جداً ، ومنظمة ، ولأنها يمكن أن تستقطب الجميع حولها»[٣] ، فتغدو — لذلك — خطراً حقيقياً على الاستعمار ، بكافة صوره وألوانه .

ومن ثم كان لا بد من التدخل ، لإجهاض حركة الإخوان المسلمين .

---

(١) اتهم محمد نجيب — محمد حسنين هيكل ، بالعمالة ، فى مذكرات نشرت له فى بيروت ، ولم تصل الى القاهرة ، وثار هيكل فى (الأهرام) ، الذى كان رئيسا لتحريره ، وهدد برفع الأمر الى القضاء ، وتوعد .. ثم سكت ، ومات الموضوع بسكوته .

(٢) نذكر هنا بأن مصطفى أمين حوكم سنة ١٩٦٥ بتهمة التخابر مع أمريكا ، وذلك عندما ساءت علاقات مصر بأمريكا ، كما سيأتى فيما بعد .

(2) COPELAND, MILES : The Game of Nations, The Amorality of Power Politics; Sixth Edition, Weidenfeld and Nicolson, London, October 1970, p. 154.

وكان — من ثم أيضاً — لابد من احتواء الثورة .

(ووزنت) المخابرات الأمريكية كل أعضاء مجلس قيادة الثورة، فوجدتهم مجموعة من الشباب الوطنى ، المتحمس لخدمة بلاده[١] ، ويقود هذا الشباب المتحمس رجلان ، أحدهما هو محمد نجيب ، والثانى هو جمال عبد الناصر .

وكان محمد نجيب — فى رأيها — رجلا محنكا ، كبير السن ، وقوراً محبوباً ، « بعيد النظر فى تصرفاته »[٢] ، ومن ثم لم يكن مثل هذا الرجل ليصلح لأن يكون رجلهم ، وكان لابد من « لاعب جديد ، يظهر على الساحة »[٣] .

وكانت كل صفات هذا اللاعب[٤] ، الذى لابد أن يظهر على الساحة ، تنطبق على الرجل الثانى — جمال عبد الناصر ، الذى كان شديد الشبه — فى نظرهم — بنابليون وهتلر[٥] ، والذى لو خير بين كرسى الحكم ، وخراب مصر كلها ، لاختار خراب مصر كلها ، فى سبيل الكرسى الذى يجلس عليه ، ويمارس من خلاله السلطة والتسلط — على حد تعبير كوبلاند[٦] .

وبدأت أنظار المخابرات الأمريكية تتجه إلى عبد الناصر ، منذ اللحظات الأولى للثورة ، « وبينما كان الرأى العام المصرى يلتف حول نجيب ، كانت السفارة الأمريكية ، من خلال ليكلاند ، تتعامل مع عبد الناصر » .

---

(1) Ibid , p 62.
(2) Ibid., p. 62.
(3) Ibid., p. 62.
(٤) تتكرر كلمة (لاعب) و (لعبة) فى كتاب كوبلاند بشكل لافت للنظر ، ولكنها — فى نظرى — مناسبة لجو الكتاب — كما سنرى .
(5) Ibid., p. 153.
وقد تكرر تشبيه عبد الناصر بنابليون وهتلر كثيرا فى الكتاب ، فى غير هذا المكان .
(6) Ibid., p. 76.

« وكان السفير (الأمريكى) كافرى ، يقابل نجيب من وقت لآخر ، للقيام بزيارات رسمية ، أو للتشاور فى أمور تطلبها واشنطن » ، إلا أن العمل الحقيقى ، بين الحكومة الأمريكية والحكومة المصرية ، كان يتم من خلال ليكلاند وعبد الناصر ، أو حتى ليكلاند وهيكل وعبد الناصر »[1] .

ثم بدأت محاولات عبد الناصر (لترويض) الإخوان المسلمين ، بحيث يكونون إخواناً على الطريقة الأمريكية ، ولما فشل فى (ترويضهم) ، بدأ فى اعتقالهم .

وهنا بدأت السلطتان تصطدمان — السلطة الحقيقية ، والسلطة المعلنة .

وتفجرت أزمة مارس ١٩٥٤ ، بين عبد الناصر ، ومحمد نجيب .

وطرد محمد نجيب من السلطة ، بإرادة أمريكية ، ثم أعيد إليها مرة ثانية ، بإرادة شعبية عارمة .

ثم رتب جمال عبد الناصر (مسرحية المنشية) المشهورة — مسرحية العدوان على حياته ، ومن خلالها خطط للاستيلاء على السلطة بالقوة — مسنوداً من أمريكا بطبيعة الحال — واعتقال محمد نجيب ، و (تصفية) حركة الإخوان المسلمين ، ثم أنشأ (المؤتمر الإسلامى) سنة ١٩٥٤ — نفس السنة التى تم فيها ذلك كله .

وفشلت زعامة عبد الناصر الإسلامية ، فوجهه الأمريكيون إلى الزعامة العربية ، ثم فتحوا له آفاقاً أوسع من الزعامة العربية ، وهى زعامة العالم الثالث كله .

---

(1) Ibid., p. 63.

ويبدو أن لقاء عبد الناصر مع نهرو وتيتو وسوكارنو ، وغيرهم من زعماء العالم الثالث ، قد أفسد على أمريكا وعبد الناصر - معاً - كل شيء .

لقد أريد له أن يكون زعيماً . . لصالحهم ، فإذا بتيار المؤتمر يجرفه ، إلى تيار معتدل . . أو تيار مضاد ، فبدأ يتحدث عن (مقاومة الاستعمار) ، ويتخذ خطاً غير الخط المرسوم له .

وهنا بدأت أمريكا تعيد حساباتها معه . . وفى الوقت ذاته ، بدأت روسيا تتقرب إليه .

وزاد الطين بلة . . أن المؤتمر الإسلامى ، الذى أنشئ لخدمة أمريكا، ومحاربة الإخوان المسلمين ، بدأ هو الآخر يخدم — فى نظر كوبلاند — أغراض الشيوعية ، فقد صار « هدف البعثات الدينية فى أفريقيا، هو مقاومة الامبريالية ، العدو المشترك لمصر وأفريقيا على السواء »[١] .

ومن ثم ، كان لابد أن يتوقف الدعم الأمريكى لعبد الناصر . . مع مطلع الستينات[٢] ، بعد أن فشل كوبلاند ، فى نهايات سنة ١٩٥٦ ، وأوائل سنة ١٩٥٧ ، على حد قوله ، فى إقناع المسئولين الأمريكيين بالصبر ، وفى انتحال الأعذار لعبد الناصر ، حتى اتهمه هؤلاء المسئولون ، بأنه « ناصرى أكثر من عبد الناصر نفسه »[٣] .

وتتخلى أمريكا عن عبد الناصر . . لتتلقفه روسيا ، ودوره معها ليس سراً ، فقد كشفت كل الأسرار بينهما اليوم .

---

(1) Ibid., p. 157.
(2) Ibid., p. 157.
(3) Ibid., p. 171.

وترمى أمريكا — بعد عبد الناصر — بثقلها كله مع إسرائيل، لتؤدب بها عميلها السابق، الذى تمرد عليها .

وقد أدبته بالفعل . . وأدبت شعب مصر كله معه .

فللمسلم أن يفخر بنفسه، فقد وقف فى (لعبة العمالة) هذه، حراً .. شريفاً، نظيفاً، لم يطمع فى سلطة، ولم يطمع فى مال، وكل ما فعله أنه . . تراخى فى واجبه، حتى تسلط المتسلط . ومن ثم قابل التسلط بالرضا بقضاء الله، والصبر عليه، حتى تزول الشدة، وقد زالت، مثلما قابل — من قبل — نجاح الثورة — بالشكر . وقد تذكر — فى صبره على شدته — قول ربه :

— « وإذا أردنا أن نهلك قرية، أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها، فحق عليها القول، فدمرناها تدميراً »(١) .

فكان هذا القانون الإلهى المحكم له خير عزاء، ثم أزال الله شدته، وفرج كربته، بنفس القانون الإلهى المحكم :

— « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد »(٢) .

فها هم العملاء يفضحهم التاريخ .

وها هى الأقنعة تسقط .

وها هو المؤمن . . تتطلع إليه العيون والقلوب والعقول . . بفرحة، تنتظر على يديه . . الكثير .

---

(١) قرآن كريم : الاسراء — ١٧ : ١٦ .
(٢) قرآن كريم : غافر — ٤٠ : ٥١ .

وصار (الحصان) الإسلامى هو (الحصان الرابح) (. . . يراهن عليه) حتى ألد اعداء الإسلام .

* * *

وقد يظن أحد أنى أكتب هذا الكلام، دفاعاً عن الإخوان المسلمين ، أو هجوماً على جمال عبد الناصر ، أو (انبهاراً) (بلعبة الأمم) ، كما صورها كوبلاند ، أو . . .

على أن هذا الظن ـ وهو وارد بالنظرة السريعة ـ يكون إثماً ، إذا ما تابع الإنسان هذه السلسلة ، منذ كتابها الأول ، وحتى هـذا الكتاب الرابع ، وعرف رسالتها وأهدافها ومقاصدها . . وأسلوبها .

فالدفاع والهجوم لم ـ ولن ـ يكونا خلقاً من أخلاق فى هذه السلسلة ، لأنهما لا يصلحان أسلوباً ، يستطيع به الإنسان أن يظهر الإسلام ، قادراً على مواجهة (تحديات العصر) .

والانبهار بكتاب أو بفكرة ، إذا أصاب ، فإنه لا يمكن أن يصيب باحثاً عن الحقيقة ، ملتزماً بها ، كما أحاول أن أكون فى هذه السلسلة ، حتى أقول ما يقنع .

وإنما المسألة ، أن الكتاب وقع تحت يدى ، فى وقت كنت قد كتبت فيه نصف هـذه الخاتمة ، فوجدت ما فيه مناسباً لأن تدور حوله ، ومن ثم مزقت ما كتبته ، وبدأت ـ بعد قراءة الكتاب واستيعابه ـ أكتب من جديد ، بفكر جديد ، ومن منظور جديد .

وقد يدهش القارئ ، إذا عرف أنني إنما كتبت ما كتبت ، من منظور آخر مختلف ، بعيد كل البعد عن المنظور ، الذي يمكن أن يتصوره .

إنه منظور (اللعبة) ، التي اختارها كوبلاند، عنواناً لكتابه الخطير هذا.

وأرض اللعبة هي العالم الثالث ، واللاعبون هم الأمريكيون ، (أبناء الحرة) ، والملعوب عليهم هم . . شعوب العالم الثالث ، والشعوب الإسلامية بوجه خاص ، والهدف من اللعبة ، هو إجهاض الإسلام ، فاللعبة إذن . . امتداد للحروب الصليبية .

وكاتب (اللعبة) رجل مخابرات ، ومعنى ذلك أنه لم يكتبها من تلقاء نفسه ، وإنمـا هو كتبها مأموراً ، أو مسموحاً له بكتابتها ، لتحقيق هدف معين .

وهذا الهدف المعين ، هو (إيهام) العالم كله ، بأن جميع بلاد العالم تحت سيطرة المخابرات المركزية الأمريكية ، فمن أراد السلامة ، فليدعن على طول الخط ، وإلا كان مصيره كمصير جمال عبد الناصر ، الذي نفعته عمالته لأمريكا ، بينما قضى عليه محاولته الاستئساد ، ثم عمالته لروسيا .

ولو أن هذا الكتاب صبر عليه مؤلفه ، سنتين أو ثلاثاً ، لغير آراءه كلها ، فلقد أصيبت أمريكا بمجموعة من النكسات ، في كل مكان بالعالم . . جعلت زعماءها يقلبون سياساتهم رأساً على عقب ، فلقد صارت السياسة الدولية في نظرهم ـ بعد هذا النكسات ـ تعاوناً مع الآخرين ، لا تسلطاً عليهم ، واحتراماً للآخرين ، لا تكبراً عليهم .

وبدأنا نحن في الشرق الأوسط ، نستفيد بهذا التحول بعض استفادة ،

لا استفادة كاملة ، فى قضية - أو مأساة - الشرق الأوسط ، فما لا يدرك كله ، لا يترك كله .

وربما كان هذا التحول أعمق فى المستقبل القريب — من يدرى ؟

أما عبد الناصر ، فهو — فى نظرى — يستحق كل ما قيل — ويقال - وسيقال - عنه ، لأن من أعمته شهوة الحكم ، لابد أن يتخبط ، ومن تخبط سهل انقياده ، وتحطيمه للقيم ، ومن سهل انقياده وتحطيمه للقيم على هذا النحو ، سهل تحطيمه شخصياً فى النهاية .

وليست قصة عبد الناصر عنا ببعيدة .

وليست قصة حسنى الزعيم والشيشكلى ، فى سوريا ، قبل عبد الناصر ، ببعيدة .

ولن أتحدث عن قصة تشومبى الكونغو ، أو عبد الكريم قاسم العراق ، أو غيرهما .

إن المخابرات الأمريكية المركزية معجزة المعجزات .. أمام ضعاف النفوس وحدهم ، ولقد فشلت هذه المخابرات نفسها مع محمد نجيب ، ومع حسن الهضيبى .. ولو استطاعت (ترويضهما) ، لجنت من وراء هذا (الترويض) أضعاف أضعاف ماجنته من وراء عبد الناصر .

ولو تسربت هذه المخابرات إلى محمد نجيب ، لتسربت - من خلاله - إلى « الشارع المصرى كله »[1] ، ولو تسربت إلى حسن الهضيبى ،

---

(١) كرم شلبى : عشرون يوما هزت مصر (دراسة ووثائق فى أزمة مارس) - دار أسامة للطباعة والنشر بالقاهرة - ١٩٧٦ ، ص ١٢ .

لتسربت إلى العالم الإسلامى كله ، فمع أن « منظماتهم (أى الإسلاميين) تعرضت للحل عدة مرات ، كما تعرض قادتهم للسجن ، فقد بقى تأثيرهم قوياً » ، « وبذا استطاع السلفيون أن يضعوا كل من عداهم موضع الاتهام »[١] ـ والمقصود بالسلفيين هنا ، هو الجماعات الإسلامية ، وفى مقدمتها جماعة « الإخوان المسلمين » فى مصر وسوريا وإيران ، والأحرار فى باكستان » ، التى « كانت مستعدة لأن تذهب فى الطريق إلى آخر مداه ، فى رفض الأفكار الأجنبية ، والعودة إلى التطبيق الحرفى المتزمت ، لقواعد الإسلام »[٢] ، على حد تعبير الدراسة ، وهو تعبير فيه من الحقد ، أكثر مما فيه من الإنصاف ، ولكننا ننقله كما هو ، بأمانة .

وليس من الحكمة أن يغمرنا الحماس ، فننسى (إمكانيات) المخابرات المركزية الأمريكية ، ولكننا يجب ألا ننسى أيضاً ، أن لكل بلد مخابراته ، فللاتحاد السوفيتى مخابراته ، التى أثبتت نفس (لعبة الأمم) ، أنها كانت مهر من المخابرات المركزية الأمريكية فى اصطياد عميلها ، وأخذه من بين يديها ، ولمصر مخابراتها ، التى أثبتت حرب رمضان ١٩٧٣ ، أنها ـ بإمكانياتها المحدودة ، إذا قيست بإمكانيات المخابرات المركزية ـ أمهر من هـــذه المخابرات الأخيرة .

وعلى فرض أن المخابرات الأمريكية أمهر مخابرات فى العالم ، كما يريد كوبلاند أن يقول ، فما هى المخابرات ؟

---

(١) تاريخ البشرية ــ المجلد السادس (القرن العشرون) ــ التطور العلمى والثقافى ــ الجزء الثانى ــ ١ (تطور المجتمعات) ــ اعداد اللجنة الدولية ، باشراف منظمة اليونسكو ــ الترجمة والمراجعة : عثمان نويه وآخران ــ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ــ ١٩٧١ ، ص ٣٣١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣١ .

إنها جهاز صنعه الإنسان ، ليحمى به نفسه .

ومن ثم يجب أن يكون هذا الجهاز تحت سيطرة الإنسان ، وإلا فقد مقومات وجوده ، وصار عبئاً على الحياة والأحياء ، وعلى العاملين بهذا الجهاز أنفسهم .

ومصير مالك مخابرات مصر .. صلاح نصر .. معروف اليوم للجميع ، بعد أن أفلت زمام هذا الجهاز من يديه ، فصار عبئاً على مصر والمصريين ، وعلى الجهاز الحاكم ذاته .. وعلى صلاح نصر شخصياً .

ونفس المخابرات المركزية الأمريكية ، نمت ـ كجهاز ـ فصارت عبئاً على سياسة أمريكا الخارجية ، بتدخلها فى كل صغيرة وكبيرة ، فى شئون الدول الأخرى ، حتى ورطت أمريكا مع أعدائها وأصدقائها على السواء .
ثم صار هذا الجهاز عبئاً على الأمريكيين أنفسهم ، بعد أن وضع كل أمريكى تحت المجهر ، بشكل صار مثيراً للاشمئزاز ، بعد أن حطم معنى (الحرية) ، التى يحرص عليها الأمريكيون من قديم ، ومن عشقهم لها ، يقيمون لها تمثالا .. يحجون إليه ، ويباهون به شعوب العالم .

ولقد صار هذا الجهاز الأمريكى اليوم مضغة على كل لسان .. ولكنه أفلت من أيديهم ، فلم يعودوا يعرفون : من أين يبدءون ، فى تصحيح مساره ؟

فللمسلم أن يفخر بنفسه ، بأنه استطاع أن يظل خارج (لعبة الشعوب) هذه ، نظيفاً ، طاهراً .. لم تخفه الأجهزة الضخمة ، وقد أخافت ـ بالفعل ـ أصحابها .. فظل ـ « رغم ربع قرن من التهتك والتفكك ، والعمالة والنذالة ، والإلحاد »[1] .. هو هو الإنسان المسلم ، المعتز بعبوديته لله ، الرافض لأية

(١) سعد جمعة : الله أو الدمار ـ الطبعة الثالثة ـ المختار الإسلامى للطباعة والنشر والتوزيع ـ ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م ، ص ٧ ـ من التقديم .

عبودية لسواه . . المحافظ ـ لذلك ـ على نقاء الإسلام وطهره ، حتى « صار فى منتصف القرن ، عاملا فعالا ، يؤثر فى العالم تأثيراً أقوى مما كان له ، فى أى وقت ، منذ بدأ التوسع الأوروبى »[١] ـ رغم ماوجه إليه من الخارج والداخل على السواء من . . طعنات .

* * *

وللمسلم أن يفخر بنفسه ، أنه فى (سوق النخاسة) الدولية ، ظل حراً .

وباعت قيادات ، كانت تبدو أمام الأعين عملاقة ، نفسها فى هذه السوق ، ولكنه رفض إلا أن يعيش حراً ، رغم ما بنوه له من سجون .

ولما ضاقت السجون بساكنيها . . حولوا مجتمعاتهم إلى . . سجن كبير .

وظل هو ـ رغم السجون ـ صابراً وصادقاً ، متفائلا مستبشراً ، مدركاً أنه قدره ، وأنه بإرادة إلهية عليا ، لابد أن ينتصر فيها الحق فى النهاية :

ـ « . . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين »[٢] .

— « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد ، يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض ، أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور »[٣] .

---

(١) تاريخ البشرية ـ المجلد السادس ـ الجزء الثانى ـ (المرجع الأسبق) ، ص ٢٩٤ .

(٢) قرآن كريم : البقرة ـ ٢ : ٢٥١ .

(٣) قرآن كريم : الحج ـ ٢٢ : ٤٠ ، ٤١ .

وقد كان هذا المسلم ، الذى يحق له أن يفخر بنفسه اليوم.. مسيراً يأمر ربه:

— « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل، فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به ، لعلكم تتقون »[١] .

وقد سار هو على هذا الصراط المستقيم . . تاركاً لمن استذلهم الشيطان واستزلهم، أن ينحرفوا عن الصراط ، متبعين السبل ..لتؤدى بهم إلى.. . النار.

ومن ثم لم يكن ممكناً فهم الإنسان المسلم فهماً كاملا .. دون الحديث عن . . . اليوم الآخر[٢] .

(١) قرآن كريم : الأنعام ــ ٦ : ١٥٣ .

(٢) كان مقرراً ــ فى تخطيطى لهذه السلسلة ــ أن يكون الكتاب التالى عن (المجتمع الاسلامى) ، ولكننى عدلت عن ذلك، فى أثناء كتابة هذا الكتاب ، وقررت أن أجعل (اليوم الآخر) هو الكتاب التالى ، لأن حياة الانسان فى دنياه ، ليست الا مجرد جزء ــ محدود ــ من حياته التى لا تنتهى .. يوم القيامة.

المراجع

أولا : المراجع العربية :

١ — ا. ك. أوتاواى : التربية والمجتمع ـ ترجمة دكتور وهيب ابراهيم سمعان وآخرين ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٩٦٠ .

٢ — الإيغومانس ابراهيم لوقا : المسيحية فى الإسلام ـ الطبعة الأولى ـ مطبعة النيل المسيحية ـ يوليو ١٩٣٨ .

٣ — الدكتور ابراهيم وجيه محمود : التعلم ـ عالم الكتب ـ ١٩٧١.

٤ — الشيخ أحمد حسن الباقورى : «الدين أصل فى الفطرة الإنسانية» ـ منار الإسلام ـ تصدرها وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف ، فى دولة الإمارات العربية المتحدة ـ العدد الأول ـ محرم ١٣٩٦هـ ـ يناير ١٩٧٦ م .

٥ — الدكتور أحمد زكى صالح : علم النفس التربوى ـ الطبعة الثامنة ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ١٩٦٥ .

٦ — دكتور أحمد زكى صالح : نظريات التعليم ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ١٩٧١ .

٧ — الدكتور أحمد عروة : الإسلام فى مفترق الطرق ـ نقله عن الفرنسية : الدكتور عثمان أمين ـ دار الشروق ـ ١٩٧٥ .

٨ — دكتور أحمد عزت راجح : أصول علم النفس ـ الطبعة الخامسة ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ ١٩٦٣ .

٩ — إحياء علوم الدين ، للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالى ـ الجزء السادس عشر ـ كتاب الشعب ـ ٢٨ رمضان ١٣٨٩ ـ ٨ ديسمبر ١٩٦٩.

١٠ ـ آدم كيرل : استراتيجية التعليم ، فى المجتمعات النامية ـ دراسة للعوامل التربوية والاجتماعية ، وعلاقتها بالنمو الاقتصادى ـ ترجمة سامى الجمال ـ مراجعة د. عبد العزيز القوصى ـ الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار (بدون تاريخ) .

١١ ـ اسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى (المتوفى سنة ٧٧٤ هـ) : تفسير القرآن العظيم ـ الجزء الثانى ـ ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م (بدون ناشر) .

١٢ ـ البهى الخولى : الاشتراكية فى المجتمع الإسلامى ، بين النظرية والتطبيق ـ مكتبة وهبة (بدون تاريخ) .

١٣ ـ العهد الجديد .

١٤ ـ العهد القديم .

١٥ ـ ألكسيس كاريل : الإنسان ، ذلك المجهول ـ تعريب شفيق أسعد فريد ـ مكتبة المعارف ـ بيروت ـ ١٩٧٤.

١٦ ـ المعجم الوسيط ـ قام بإخراجه : ابراهيم مصطفى وآخرون ـ وأشرف على طبعه : عبد السلام هارون ـ الجز الأول ـ مجمع اللغة العربية ـ ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م .

١٧ ـ آن أنستازى : « طبيعة الفروق الفردية » ـ ترجمة الدكتور مختار حمزة ـ الفصل الرابع عشر من: <u>ميادين علم النفس، النظرية والتطبيقية</u> ـ

التأليف بإشراف : ج . ب . جيلفورد ـ والترجمة بإشراف : الدكتور يوسف مراد ـ المجلد الثانى ـ الميادين التطبيقية ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٥٦.

١٨ ـ أنا فرويد : الأنا ، وميكانيزمات الدفاع ـ ترجمة صلاح مخيمر ، وعبده ميخائيل رزق ـ تقديم مصطفى زيور ـ من (المؤلفات الأساسية فى التحليل النفسى) ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٩٧٢ .

١٩ ـ د. برايس ـ وليامز : « الدراسات الثقافية المقارنة » ـ الفصل الحادى والعشرون من : آفاق جديدة ، فى علم النفس ـ أشرف على تأليفه : ب. م. فوس ـ ترجمة دكتور فؤاد أبو حطب ـ عالم الكتب ـ ١٩٧٢ .

٢٠ ـ تاريخ البشرية ـ المجلد السادس (القرن العشرون) ـ التطور العلمى والثقافى ـ الجزء الثانى ـ ١ (تطور المجتمعات) ـ إعداد اللجنة الدولية ، بإشراف منظمة اليونسكو ـ الترجمة والمراجعة : عثمان نويه وآخران ـ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ ١٩٧١ .

٣١ ـ ج. ل. فريمان : « علم النفس الفسيولوجى » ـ ترجمة الدكتور صبرى جرجس ـ الفصل الثانى عشر من : ميادين علم النفس ، النظرية والتطبيقية ـ التأليف بإشراف : ج . ب. جيلفورد ـ والترجمة بإشراف : الدكتور يوسف مراد ـ المجلد الثانى ـ الميادين التطبيقية ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٥٦ .

٢٢ ـ الدكتور جابر عبد الحميد جابر : سيكولوجية التعلم ـ دار النهضة العربية ـ ١٩٧٢ .

٢٣ ـ جان بياجيه : ميلاد الذكاء عند الطفل ـ ترجمه دكتور محمود قاسم ـ راجعه دكتور محمد محمد القصاص ـ مكتبة الأنجلو المصرية (بدون تاريخ).

٢٤ ـ جون ديوى : الطبيعة البشرية والسلوك الإنسانى ـ ترجمة وتقديم الدكتور محمد لبيب النجيحى ـ مؤسسة الخانجى بالقاهرة ـ ١٩٦٣ .

٢٥ ـ دكتور حامد عبد السلام زهران : علم النفس الاجتماعى ـ عالم الكتب ـ ١٩٧٢ .

٢٦ ـ دكتور حامد عبد السلام زهران : علم نفس النمو (الطفولة والمراهقة) ـ الطبعة الثانية ـ عالم الكتب ـ ١٩٧٢ .

٢٧ ـ دكتور حامد عبد العزيز الفقى : دراسات فى سيكولوجية النمو ـ عالم الكتب ـ ١٩٧٤/١٩٧٥.

٢٨ ـ خليل طاهر : الأديان والإنسان ، منذ مهبط آدم، حتى : اليهودية ـ المسيحية ـ الإسلام ـ قدم له وراجعه : فضيلة الإمام الأكبر ، الشيخ عبد الحليم محمود ـ دار الفكر والفن ـ ١٩٧٦ .

٢٩ ـ دانيل كاتز : « أثر الجماعة فى الاتجاهات والسلوك الاجتماعى » ـ ترجمة الدكتور مختار حمزة ـ الفصل الثامن من : ميادين علم النفس ، النظرية والتطبيقية ـ بإشراف : ج. ب. جيلفورد ـ والترجمة بإشراف : الدكتور يوسف مراد ـ المجلد الأول ـ الميادين النظرية ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٥٥ .

٣٠ ـ رالف لنتون : دراسة الإنسان ـ ترجمة عبد الملك الناشف ـ منشورات المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ـ ١٩٦٤ .

٣١ — الدكتور رءوف عبيد: مطول الإنسان روح لا جسد (الخلود - العقل — الاعتقاد ، فى ضوء العلم الحديث) — الجزء الأول — الطبعة الثالثة — دار الفكر العربى — ١٩٧١ .

٣٢ — الدكتور رءوف عبيد : مطول الإنسان روح لا جسد (الخلود — العقل — الاعتقاد ، فى ضوء العلم الحديث) — الجزء الثانى — الطبعة الثالثة — دار الفكر العربى — ١٩٧١ .

٣٣ — دكتورة رمزية الغريب : التعلم ، دراسة نفسية تفسيرية توجيهية — الطبعة الثالثة — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٦٧ .

٣٤ — س. ر. ب. جويس: «العقاقير والشخصية» — الفصل الرابع عشر من : آفاق جديدة فى علم النفس — أشرف على تأليفه : ب . م . فوس — ترجمة دكتور فؤاد أبو حطب — عالم الكتب — ١٩٧٢ .

٣٥ — سعد جمعة : الله أو الدمار — الطبعة الثالثة — المختار الإسلامى للطباعة والنشر والتوزيع — ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م .

٣٦ — دكتور سعد مرسى أحمد ، ودكتور سعيد اسماعيل على : تاريخ التربية والتعليم — عالم الكتب — ١٩٧٢.

٣٧ — سيجموند فرويد : خمس حالات من التحليل النفسى — الجزء الأول — ترجمة صلاح مخيمر ، وعبده ميخائيل رزق — تقديم ومراجعة مصطفى زيور — من (المؤلفات الأساسية فى التحليل النفسى) — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٧٢ .

٣٨ ـــ دكتور سيد أحمد عثمان : التعلم عند برهان الإسلام الزرنوجى (المتوفى سنة ٥٦١ هـ ـ ١١٩٥م) ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

٣٩ ـــ دكتور سيد أحمد عثمان : علم النفس الاجتماعى التربوى ـــ الجزء الثانى ـ المسايرة والمغايرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـــ ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

٤٠ ـــ سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ـ دار الشروق (بدون تاريخ).

٤١ ـــ دكتور سيد محمد غنيم : سيكولوجية الشخصية: محدداتها، قياسها، نظرياتها ـــ الطبعة الأولى ـ دار النهضة العربية ـ ١٩٧٣.

٤٢ ـــ دكتور صبرى جرجس : التراث اليهودى الصهيونى ، والفكر الفرويدى ، أضواء على فكر سجمند فرويد ـ الطبعة الأولى ـ عالم الكتب ـ ١٩٧٠.

٤٣ ـ الدكتور صلاح مخيمر : مدخل إلى الصحة النفسية ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٩٧٢.

٤٤ ـ دكتور صلاح مخيمر ، وعبده ميخائيل رزق : سيكولوجية الشخصية ، دراسة الشخصية وفهمها ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٩٦٨.

٤٥ ـ الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) : القرآن وقضايا الإنسان ـ الطبعة الأولى ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٧٢.

٤٦ ـ عباس محمود العقاد : الإنسان ، فى القرآن الكريم ـ دار الإسلام القاهرة ـ ١٩٧٣.

٤٧ ـ عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية ـ دار الإسلام بالقاهرة ـ ١٩٧٣.

٤٨ ـ عباس محمود العقاد : الشيخ الرئيس ابن سينا ـ الطبعة الثانية ـ رقم (٤٦) من سلسلة (اقرأ) ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٧ .

٤٩ ـ عباس محمود العقاد : ما يقال عن الإسلام ـ دار الهلال ـ ١٩٧٠.

٥٠ ـ الدكتور عبد الحافظ محمد حلمى : الوراثة ـ رقم (٧٩) من (المكتبة الثقافية) ـ دار القلم بالقاهرة ـ ١٥ فبراير ١٩٦٣ .

٥١ ـ عبد الحميد كشك : بناء النفوس ، وأثره فى التربية ـ ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥م (بدون ناشر) .

٥٢ ـ الدكتور عبد الدايم أبو العطا البقرى الأنصارى : أهداف الفلسفة الإسلامية ، نشأتها وتطورها ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٤٨ .

٥٣ ـ الدكتور عبد الرحمن بدوى : الإنسانية والوجودية ، فى الفكر العربى ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ١٩٤٧ .

٥٤ ـ عبد الرزاق نوفل : الله ، والعلم الحديث ـ الناشرون العرب ـ دار الشعب ـ ١٩٧١ .

٥٥ ـ الدكتور عبد العزيز القوصى : أسس الصحة النفسية ـ الطبعة الرابعة ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢ م.

٥٦ ـ الدكتور عبد العزيز القوصى : « الحوافز وشخصية الأمى ، فى مؤتمر محو الأمية الإلزامى » ـ مؤتمر بغداد لمحو الأمية الإلزامى ـ ٨/١٥ آيار ١٩٧٦ ـ التقرير النهائى والتوصيات ، ومجموعة البحوث والدراسات الميدانية ـ الجمهورية العراقية ـ وزارة التربية ـ المديرية العامة للتخطيط التربوى (قسم التخطيط) ـ العدد ٨٦ ـ ١١٩ ـ ١٩٧٦ .

٥٧ ـ الدكتور عبدالعزيز كامل : الإسلام والمستقبل ـ رقم (٤٠١) من سلسلة (اقرأ)ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٥ .

٥٨ ـ دكتور عبد الغنى النورى ، ودكتور عبد الغنى عبود : نحوفلسفة عربية للتربية ـ الطبعة الأولى ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٦ .

٥٩ ـ دكتور عبد الغنى عبود : الإسلام والكون ـ الكتاب الثالث من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) ـ الطبعة الأولى ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٧ .

٦٠ ـ دكتور عبد الغنى عبود : الأيديولوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربية المقارنة ـ الطبعة الأولى ـ دارالفكر العربى ـ ١٩٧٦ .

٦١ ـ الدكتور عبد الغنى عبود : « التعليم مدى الحياة فى الإسلام » ـ تعليم الجماهير ـ مجلة متخصصة ، تصدر عن : الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار ـ العدد الثامن ـ السنة الرابعة ـ يناير ١٩٧٧ .

٦٢ ـ دكتور عبد الغنى عبود: « التعليم مدى الحياةفى الإسلام »ـالمقولة الثانية من : فىالتربية المعاصرة ـ الطبعة الأولىـدار الفكر العربىـ١٩٧٧ .

٦٣ ـ الدكتور عبد الغنى عبود : « العبودية لله ، والتحرر الإنسانى » ـ منبر الإسلام ـ يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ السنة ٣٥ ـ العدد ١ ـ المحرم ١٣٩٧ ـ يناير ١٩٧٧ .

٦٤ ـ دكتور عبد الغنى عبود : العقيده الإسلامية والأيديولوجيات المعاصرة ـ الكتاب الأول من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) ـ الطبعة الأولى ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٦ .

٦٥ ـ دكتور عبد الغنى عبود : الله، والإنسان المعاصر ـ الكتاب الثانى من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) ـ الطبعة الأولى ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٧ .

٦٦ ـ عبد الكريم الخطيب : الله ذاتا وموضوعا ، قضية الألوهية .. بين الفلسفة والدين ـ الطبعة الثانية ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧١ .

٦٧ ـ عبد الكريم الخطيب : الله .. والإنسان ، قضية الألوهية .. بين الفلسفة والدين ـ الطبعة الثانية ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧١ .

٦٨ ـ عبد الوهاب حمودة : القرآن وعلم النفس ـ رقم (٥٥) من (المكتبة الثقافية) ـ دار القلم بالقاهرة ـ ١٥ فبراير ١٩٦٢ .

٦٩ ـ د. عماد الدين خليل : « فى التفسير الإسلامى للتاريخ : المسألة الحضارية » ـ المسلم المعاصر ـ مجلة فكرية ، تعالج شؤون الحياة المعاصرة ، فى ضوء الشريعة الإسلامية ـ العدد التاسع (المحرم ـ صفر ـ ربيع الأول ١٣٩٧ هـ ـ يناير ـ فبراير ـ مارس ١٩٧٧ م) .

٧٠ ـ دكتور فؤاد البهى السيد : الأسس النفسية للنمو ، من الطفولة إلى الشيخوخة ـ الطبعة الرابعة ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٥ .

٧١ ـ الدكتور فؤاد البهى السيد : علم النفس الاجتماعى ـ الطبعة الأولى ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٥٤ .

٧٢ ـ فيليب هـ . فينكس : فلسفة التربية ـ ترجمة وتقديم الدكتور محمد لبيب النجيحى ـ دار النهضة العربية ـ ١٩٦٥ .

٧٣ ـ قرآن كريم .

٧٤ ـ كتاب البراهين العقلية والعلمية ، فى صحة الديانة المسيحية ـ تأليف وجمع : القائمقام ترتن ، من فرقة المهندسين ـ ترجمة حبيب أفندى سعيد ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة النيل المسيحية بالمناخ بمصر ـ ١٩٢٥.

٧٥ ـ كرم شلبى : عشرون يوما هزت مصر (دراسة ووثائق فى أزمة مارس) ـ دار أسامة للطباعة والنشر بالقاهرة ـ ١٩٧٦ .

٧٦ ـ لانسلوت هوجبن : العلم للمواطن ـ ترجمة دكتور عطية عبدالسلام عاشور ، ودكتو سيد رمضان هدارة ـ مراجعة دكتور محمد مرسى أحمد ـ رقم (١٠١) من (الألف كتاب) ـ الجزء الثالث ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٦٣ .

٧٧ ـ الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية (تبحث الأدوار التى مرت بها عقائد النصارى ، وفى كتبهم وفى مجامعهم المقدسة وفرقهم) ـ الطبعة الرابعة ـ دار الفكر العربى ـ ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢ م .

٧٨ ـ الدكتور محمد جلال أبو الفتوح شرف : الله والعالم والإنسان ، فى الفكر الإسلامى ـ من (المكتبة الفلسفية) ـ الطبعة الثالثة ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٥.

٧٩ ـ محمد صبيح : المعتدون اليهود ، من أيام (موسى) إلى أيام (ديان) ـ مطبعة دار العالم العربى ـ ١٩٦٨ .

٨٠ ـ الدكتور محمد فاضل الجمالى : تربية الإنسان الجديد (محاضرات فى مبادئ التربية ، ألقيت فى الجامعة التونسية) ـ الشركة التونسية للتوزيع ـ ١٩٦٧ .

٨١ ـ محمد قطب : قبسات من الرسول ـ الطبعة الثانية ـ دار الشروق (بدون تاريخ) .

٨٢ ـ محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ـ الطبعة الثانية ـ دار الشروق (بدون تاريخ) .

٨٣ ـ فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى : القضاء والقدر ، معجزات الرسول ، إعجاز القرآن ، مكانة المرأة فى الإسلام ـ إعداد وتقديم أحمد فراج ـ الطبعة الثانية ـ دار الشروق ـ سبتمبر ١٩٧٥ .

٨٤ ـ فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى : مقومات الوجود لأى عصر ، من خلال سورة العصر ـ المطبعة السلفية ومكتبتها (بدون تاريخ) .

٨٥ ـ محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب : أوضح التفاسير ـ الطبعة الخامسة ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ شعبان ١٣٧٥ ـ مارس ١٩٥٦ .

٨٦ ـ الدكتور مصطفى الرافعى : الإسلام ومشكلات العصر ـ الطبعة الأولى ـ دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت ـ ١٩٧٢ .

٨٧ ـ دكتور مصطفى فهمى : الشذوذ النفسى ـ مكتبة مصر ـ ١٩٥٧ .

٨٨ ـ دكتور مصطفى فهمى : سيكولوجية التعلم ـ الطبعة الثانية ـ لجنة النشر للجامعيين ـ مكتبة مصر ـ ١٩٥٧ .

٨٩ ـ مصطفى محمود : القرآن ، محاولة لفهم عصرى للقرآن ـ الطبعة الثالثة ـ دار الشروق ـ بيروت ـ ١٩٧٣ .

٩٠ ـ مصطفى محمود : لغز الحياة ـ الطبعة الخامسة ـ دار العودة ـ بيروت ـ ١٩٧٤ .

٩١ ـ مقدار يالجن : الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام (دراسة مقارنة) ـ الطبعة الأولى ـ مكتبة الخانجى بمصر ـ ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٣م.

٩٢ ـ هـ. ا. ل. فشر : تاريخ أوربا فى العصر الحديث (١٧٨٩ـ١٩٥٠) ـ تعريب أحمد نجيب هاشم ، ووديع الضبع ـ (جمعية التاريخ الحديث) ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٥٨ .

٩٣ ـ وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ، مدخل علمى إلى الإيمان ـ ترجمة ظفر الإسلام خان ـ مراجعة وتقديم دكتور عبد الصبور شاهين ـ الطبعة الخامسة ـ المختار الإسلامى ـ ١٩٧٤ .

٩٤ ـ وحيد الدين خان : الدين فى مواجهة العلم ـ ترجمة ظفر الإسلام خان ـ مراجعة عبد الحليم عويس ـ الطبعة الثالثة ـ المختار الإسلامى ـ القاهرة ـ ١٩٧٤ .

٩٥ ـ و. د. وول : التربية والصحة النفسية ـ ترجمة الدكتور ابراهيم حافظ ـ مراجعة الدكتور عبد العزيز القوصى ـ رقم (٤٧٧) من (الألف كتاب) ـ دار الهلال (بدون تاريخ) .

٩٦ ـ ويلارد أولسون : تطور نمو الاطفال ـ ترجمة الدكتور ابراهيم حافظ وآخرين ـ مراجعة وتقديم الدكتور عبد العزيز القوصى ـ عالم الكتب ـ ١٩٦٢ .

٩٧ ـ الدكتور يوسف القرضاوى : الإيمان والحياة ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة وهبة ـ ١٩٧٢ .

٩٨ ـ الدكتور يوسف مراد : مبادئ علم النفس العام ـ من (منشورات جماعة علم النفس التكاملى) ـ الطبعة الرابعة ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٢ .

ثانيا : المراجع الاجنبية :

1 — ALI, ABDULLAH YUSUF : The Holy Qur-an, Text, Translation and Commentary,. Volume Two; The Murray Printing Company, Cambridge, Massachussetts, U. S. A., 1946.

2 — BUTTS, R. FREEMAN: A Cultural History of Western Education, Its Social and Intellectual Foundations; Second Edition, Mc Graw Hill Company, New-York, 1955.

3 — COPELAND, MILES : The Game of Nations, The Amorality of Power Politics; Sixth Edition, Weidenfeld and Nicolson, London, October 1970.

4 — CROW, LESTER D. and CROW, ALICE : Human Development and Learning; Eurasia Publishing House (Pvt.) Ltd., Ram Nagar, New-Delhi, 1964.

5 — CURTIS, JACK, H. : Social Psychology, Mc Graw-Hill Book Company, Inc., New-York, 1960.

6 — DAVIS, ROBERT A. : Psychology of Learning; Mc Graw-Hill Book Company Inc., New-York, 1935.

7 — KROEBER, A. L. : Anthropology (Race, Language, Culturè, Psychology, Prehistory); Revised Edition, Harcourt, Brace and Company, Inc., 1948.

8 — McDOUGALL, WILLIAM : An Introduction to Social Psychology; University of Paperbacks, Methuen, London, 1960.

9 — NOURSE, ALAN E. and the Editors of LIFE : The Body; LIFE - Science Library, Time - Life International (Nederland) N. V., 1965.

10 — READ, MARGARET : Education and Social Change, in Tropical Areas; Thomas Nelson and Sons Ltd., Edinburgh, 1956.

بسم الله الرحمن الرحيم

للمؤلف

أولا : من كتب التربيـة

١ ــ **فى التربيـة المقـارنة** ــ عالم الكتب ــ ١٩٧٤ (مع الدكتـورة نازلى صالح) .

٢ ــ **الأيديولوجيا والتربيـة ، مدخـل لدراسة التربيـة المقارنة** ــ دار الفكر العربى ــ الطبعة الأولى ١٩٧٦ ، والطبعة الثانية ١٩٧٨ .

٣ ــ **نحو فلسفة عربية للتربيـة** ــ دار الفكر العربى ــ ١٩٧٦ (مع الدكتور عبد الغنى النورى) .

٤ ــ **فى التربية الاسلامية** ــ دار الفكر العربى ــ ١٩٧٧ .

٥ ــ **فى التربية المعاصرة** ــ دار الفكر العربى ــ ١٩٧٧ (مع الدكتور ابراهيم عصمت مطاوع) .

٦ ــ **دراسة مقارنة لتاريخ التربية** ــ دار الفكر العربى ــ ١٩٧٨ .

٧ ــ **ادارة التربية ، أصولها وتطبيقاتها** ــ دار الفكر العربى (تحت الطبـع) .

٨ ــ **البحث فى التربية** ــ دار الفكر العربى (تحت الطبع) .

ثانيا : من كتب سلسلة (الاسلام وتحديات العصر)

(وتصـدرها كلها : دار الفكر العربى)

١ ــ **العقيدة الاسلامية والأيديولوجيات المعـاصرة** ــ مايو ١٩٧٦ .

٢ ــ **الله ، والانسان المعاصر** ــ فبراير ١٩٧٧ .

٣ ــ **الاســلام والكون** ــ مايو ١٩٧٧ .

٤ ــ **الانسان فى الاسلام ، والانسان المعاصر** ــ يناير ١٩٧٨ .

٥ ــ **اليوم الآخر ، والحياة المعاصرة** (تحت الطبع) .

رقم الايداع ٢٢٧٥ لسنة ١٩٧٨

مطبعة الاستقلال الكبرى

٨ شارع نجيب الريحاني بالقاهرة ت ٤٧٤٨٦

فى هذا الكتاب

ينظر علم النفس الحديث الى الانسان على أنه (حيوان) ، أى أنه ينظر اليه من جانب واحد فيه ، هو أقل هذه الجوانب شأنا فى حياته ، على الأقل اذا قورن بجوانب حياة الانسان الأخرى .

وهو لا يكتفى بذلك ، بل انه يزيد عليه ، أنه (يمزق) هذا الجانب المحدود فى حياة الانسان ... اربا .

والذى يقرأ القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، يلفت نظره بشكل واضح ، اهتمامه بتنظيم حياة الانسان الدنيا ، من عمل وكسب ، ومن طعام وشراب ، ومن زواج وطلاق ، ومن معاملات ، وأكثر من ذلك أنهما يعتبران الانسان مخطئا بطبعه ، ولكن باب التوبة مفتوح أمامه على مصراعيه ، بشرط أن يكون لله عبدا ، مقرا بهذه العبودية ، معتزا بهذه العبودية .

ويقسم علم النفس الحديث الناس ، الى أسوياء وشواذ .

ويكاد كل الناس أن يكونوا فى نظره شواذ ، ويكادون أن يكونوا فى نظره أيضا أسوياء ، كما يكادون أن يكونوا مجانين أو عقلاء ــ مرضى نفسيين أو أصحاء .

وعندما تختل المقاييس ... يكون الاضطراب هو الثمرة الوحيدة .

ولكن المقياس الاسلامى لتقسيم الناس واضح المعالم محدد ، ومن ثم فلا خلل فيه ولا اضطراب .

* * *

الكتاب التالى من السلسلة : اليوم الآخر ، والحياة المعاصرة



الثمن ٦٠ قرشا